البصــــرة
ودورها في نشأة علم الكلام

أ.د. محمد رمضان عبدالله*

التعريف بالبحث:

يتناول هذا البحث نشأة علم الكلام وتطوره، والحديث عن بعض رواده الأوائل من القدرية والجبرية، و المعتزلة والأشاعرة، وذلك من خلال الكلام عن مدينة البصرة التي كان لها دور كبير في هذه النشأة، وفي بزوغ رجال هذا العلم الذين بذلوا جهوداً كبيرة في الدفاع عن الإسلام وعقائده، ضد الأفكار والفلسفات الدخيلة.

وقد قدم بين يدي البحث مقدمة عن هذه المدينة من حيث سبب تسميتها وتمصيرها وعمارتها وسكانها وارتباطها بالكوفة.

ثم تناول نشأة علم الكلام في عهد رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، ثم تناول ظهور المعتزلة، وبيّن أبرز العوامل التي أحدثت تأثيرها في تشكيل هذه الفرقة.

ثم ذكر نبذة من تاريخ عدد من الرجال المتقدمين الذين يعود إليهم الفضل في تكوّن علم الكلام بالبصرة، وآخرهم الإمام أبو الحسن الأشعري.

* عميد كلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد، أستاذ علم الكلام والفلسفة الإسلامية ، ولد في محافظة كركوك في شمال العراق عام (١٩٣٧م)، وتابع دراسته الرسمية في مصر فحصل على البكالوريوس في الشريعة عام (١٩٦٠م)، وعلى دبلوم في التربية وعلم النفس عام (١٩٦٢م). وعلى الماجستير في العقيدة والفلسفة عام (١٩٦٨م)، والدكتوراه فيها كذلك عام (١٩٧٨م). وحصل على الأستاذية عام (١٩٩٥م)، وله عدد من المؤلفات والبحوث.

المُقَدِّمة

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وصحبه أجمعين:

وبعد: فقد كانت لي رغبة شديدة منذ زمن بعيد أن أكتب بحثاً عن نشأة علم الكلام وتطوره، والأدوار التي مر بها إلى أن أصبح علماً مستقلاً له مدارسه الفكرية، ومناهجه المتميزة، ولكنني لم أكن أجد فراغاً من الوقت لإنجاز هذا الأمر إلى أن أتاح الله ـ سبحانه وتعالى ـ لي الآن فسحة من الوقت لكي أكتب بإيجاز حول نشأة هذا العلم وتطوره، وأتناول بعض رواده الأوائل من القدرية والجبرية، والمعتزلة والأشاعرة.

ولما كانت البصرة هي المدينة التي كان لها دور كبير في هذه النشأة وفي بزوغ رجاله الذين بذلوا جهوداً رائعة في الدفاع عن الإسلام، وعقائده، ضد الأفكار والفلسفات الدخيلة التي كانت تريد النيل منها، وقد تكوَّن من أساليب هؤلاء الرجال وطرق جدالهم لمناوئي الإسلام، هذا العلم الذي يسمى بعلم الكلام الذي غمر بضيائه بلاد الإسلام، فأصبح أكبر عون للحفاظ على عقيدة المسلمين بإقامة الحجج، ودفع الشبه وإلزام المنكرين: كان من الجدير أن أقدم وصفاً موجزاً لهذه المدينة التي فيها نشأ هذا العلم وترعرع، وتحت أعمدة مساجدها نضجت أصوله وقواعده على أيدي رجالها الأفذاذ.

فسأتناول في دراسة هذه المدينة سبب تسميتها، وتاريخ تمصيرها، وعمارتها، وسكانها، وارتباطها بالكوفة.

مدينة البصرة

١ ـ سبب تسميتها بالبصرة:

جاء في المصباح المنير[١]: (البَصْرة) ـ وزان تمرة ـ الحجارة الرخوة، وقد تحذف الهاء مع

(١) ص٥٠.

فتح الباء وكسرها، وبها سميت البلدة المعروفة. وفي دائرة المعارف[١] أن (البصرة) في اللغة: الأرض الغليظة ذات الحجارة الصلبة، وقيل: الأرض ذات الحصى، وقيل: الحجارة الرخوة البيضاء، وقال بعضهم: إن (بصرة) تعريب (بَسْ راه) بالفارسية ومعناه الطرق الكثيرة المتشعبة.

وفي معجم البلدان[٢] قال ابن الأنباري: (البصرة) في كلام العرب الأرض الغليظة، وقال قطرب: «(البصرة) الأرض الغليظة التي فيها حجارة تقلع وتقطع حوافر الدواب»، وقال غيره: (البصرة) حجارة رخوة فيها بياض، وقال ابن الأعرابي: (البصرة) حجارة صلاب، قال: إنما سميت بصرة لغلظها وشدتها، كما تقول: ثوب ذو بصر، وسقاء ذو بصر إذا كان شديداً جيداً، قال: ورأيت في تلك الحجارة في أعلى المِرْبَد بيضاً صلاباً، وذكر الشرقي بن القطامي أن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها، نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها، فقالوا: إن هذه أرض بصرة، يعنون حصبة، فسميت بذلك.

وذكر بعض المغاربة: أن (البصرة) الطين العَلِك، وقيل: الأرض الطيبة الحمراء.

وقال حمزة بن الحسن الأصبهاني: سمعت موبذ بن أسوهشت يقول: (البصرة) تعريب (بس راه)[٣] لأنها كانت ذات طرق كثيرة، انشعبت منها إلى أماكن مختلفة، وقال قوم: (البُصْرُ) و(البَصْرُ): الكذّان وهي الحجارة التي ليست بصلبة، سميت بها (البصرة)، لأنها كانت ببقعتها عند اختطاطها.

وقال الأزهري: (البِصْرُ) الحجارة إلى البياض، وهي بكسر الباء، فإذا جاءوا بالهاء قالوا: (بصرة) بالفتح.

---

(١) دائرة المعارف للبستاني ٥/٤٥٣.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ١/٤٣٠.

(٣) جاء في معجم حسن عميد ـ فرهنك عميد ـ «بَسْ»: كثير، و«راه»: طريق وممر وشارع، فمعناها على هذا: كثيرة الطرق. انظر: مدرسة البصرة النحوية للدكتور عبدالرحمن السيد ص١٨.

وفي فتوح البلدان للبلاذري[١] قال أبو مِخْنَف: وكانت ذات حصى وحجارة سود، فقيل إنها (بصرة)، وقيل: إنهم سموها (بصرة) لرخاوة أرضها.

هذه هي خلاصة آراء أئمة اللغة حول معاني كلمة البصرة، وسبب تسمية البلدة بها، فوجدناها تنحصر في ثلاثة أقوال:

١ ـ القول الأول: أنها بمعنى الأرض الغليظة ذات الحجارة الصلبة.

٢ ـ القول الثاني: أنها الحجارة الرخوة، أو الحجارة التي بها بياض.

٣ ـ والقول الثالث: أنها معرَّبة عن الكلمة الفارسية «بسْ راه» لكثرة طرقها، والذي أراه راجحاً بين هذه الأقوال هو القول الأول؛ وذلك لكثرة قائليه ومؤيديه من أئمة اللغة كما عرفنا، وأما القول الثاني الذي ذهب إلى أنها الحجارة الرخوة التي بها بياض فلم يذهب إليه إلا القليل، لذلك لا أراني موافقاً لما ذهب إليه الدكتور عبدالرحمن السيد في ترجيحه للقول الثاني، بحجة أن منطقة البصرة كانت أرضاً صالحة للزراعة، وأنها كانت أرضاً رخوة لينة يمكن أن تستغل، وأن تكثر بها الحدائق والأنهار، وهذا ينافي القول بأنها أرض غليظة ذات حجارة صلبة[٢].

أقول: لا أوافقه في هذا الرأي؛ لأن هذه المسألة لغوية بحتة، فاللغة تعتمد على النقل فلا مجال للعقل فيها، وقد وجدنا الكثرة الكاثرة من أئمة اللغة فسرت كلمة (البصرة) بمعنى الأرض الغليظة ذات الحجارة الصلبة، وأما كون هذا المعنى يتنافى مع كون أرضها صالحة للزراعة وأنها رخوة لينة، فلا أرى في ذلك تنافياً، لأن التسمية يكفي فيها أدنى مناسبة، كما قال اللغويون من علماء المعاني، بل قالوا: لا يلزم من التسمية وجهها، ولكن يلزم من الوصف وجهه[٣].

ومع ذلك يجوز أن نقول: إنهم سموا المنطقة بهذا الاسم لا لأنها كلها غليظة ذات

(١) ص٣٤١.

(٢) مدرسة البصرة النحوية ص٢١.

(٣) المطول شرح التلخيص للتفتازاني ص٧٦.

حجارة صلبة، بل لأنهم وجدوا بقعة منها تتصف بهذا الوصف، كما سبق أن ذكر ابن الأعرابي ذلك حيث قال: رأيت في تلك الحجارة في أعلى المربد بيضاً صلاباً، وهذا لا يمنع أن يكون باقي المنطقة رخوة لينة صالحة للزراعة، ويكون هذا من باب تسمية الكل باسم جزئه، وهذا شائع في اللغة.

وأما القول الثالث الذي ذهب إلى أن الكلمة معربة عن «بَسْ راه» الفارسية، فأرجح الظن أن الذي دفع إليه هو قرب المكان من فارس، وكذلك وجود جالية فارسية كبيرة استقرت بالمدينة بعد تمصيرها، فلا نرى في ذلك سبباً قوياً لترجيح هذا الرأي، لا سيما أن الفاتحين العرب هم الذين خططوا هذه المدينة ومصروها، بعد أن لم يكن لها وجود سابق، وكانت المنطقة تسمى بأرض الهند قبل الفتح[١] . والبقعة التي بُنيتْ فيها البصرة اسمها «خُرَيْبَة»[٢]. وليس أيسر من اتخاذ اسم لمكان له من خصائصه ومميزاته ما يساعد على إطلاقه.

٢ ـ تمصيرها:

البصرة أحد الأمصار العربية التي أسست بدخول الإسلام العراق، وقد بنيت قرب الأُبُلَّة[٣] عندما أرسل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عتبة بن غزوان[٤] سنة (١٤هـ) على رأس قوة صغيرة بالقياس إلى حجم الجيوش العربية، اتخذت «الخريبة» قاعدة لحركاتها، وكانت قاعدة هذه القوة أول معسكر للمسلمين في غرب الأُبُلَّة، وكان الغرض

(١) معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر للشيخ نعمان بن محمد ص٢٠.

(٢) سميت بذلك لأن المرزبان كان ابتناها قصراً فخرب بعده فابتناه المسلمون بعد ذلك، وسموه الخريبة باسم التصغير. انظر معدن الجواهر ص٨٦.

(٣) هي بضم الهمزة والباء واللام المشددة، انظر معدن الجواهر ص٧٥.

(٤) عتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب بن نسيب أحد بني مازن بن منصور بن عكرمة بن خصف، حليف بني شمس أو بني نوفل بن عبدمناف. من السابقين الأولين، وهاجر إلى الحبشة، ثم رجع مهاجراً إلى المدينة وشهد بدراً وما بعدها، توفي سنة (١٧هـ) وقيل غيرها. انظر الإصابة ٢/ ٤٥٥.

من إرسال هذه القوة بهذا الحجم الصغير هو إشغال أهل الأهواز وفارس وميسان حتى لا يمدوا إخوانهم الذين كان يحاربهم المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص بعد أن مهّد لذلك المثنى بن حارثة الشيباني بالإغارة على الحيرة.

جاء في معجم البلدان أن عتبة بن غزوان أقبل في أربعين رجلاً منهم نافع بن الحارث ابن كلدة الثقفي، وأبو بكرة، وزياد بن أبيه، وأخت لهم، وقال له عمر: إن الحيرة قد فتحت فأْتِ أنت ناحية البصرة، وأشغل من هناك من أهل فارس والأهواز وميسان عن إمداد إخوانهم، فأتاها عتبة، وانضم إليه سويد بن قطبة فيمن معه من بكر بن وائل، وتميم[١].

ونزل عتبة ومن معه من الجند أول أمرهم في خيام، ولكنه وجد أن المسلمين في حاجة إلى منزل يشتون به إذا أشتوا، ويلجأون إليه إذا انصرفوا من غزوهم، فكتب إلى الخليفة يستأذنه، فكتب إليه الخليفة: أن اجمع أصحابك في موضع واحد، وليكن قريباً من الماء والمرعى، واكتب لي بصفته، واشترط أن يكون ذلك في مكان بحيث لا يفصل الماء بينهم وبينه، فكتب إليه عتبة: إني قد وجدت أرضاً كثيرة القَضَّة[٢]، في طرف البر إلى الريف، ودونها مناقع فيها ماء، وفيها قصباء[٣].

فلما وصلت الرسالة إلى عمر قال: هذه أرض بصرة قريبة من المشارب والمراعي والمحتطب[٤]، فبنى المسلمون مساكنهم من القصب، كما بنى عتبة المسجد منه، وكذلك بنى دار الإمارة في رحبة تعرف برحبة بني هاشم، وكانت تسمى الدهناء، وبهذه الرحبة بُني السجن والديوان وحمام الأمراء بعد ذلك، لقربها من الماء. وكانوا كلما ساروا للغزو نزعوا القصب، وحزموه حتى يعودوا من الغزو، فيعيدوا بناءه من جديد[٥] واستمر الحال

(١) معجم البلدان ١ / ٤٣١.

(٢) القضة أرض ذات حصى، أو منخفضة ترابها رمل. انظر القاموس المحيط.

(٣) القصب ـ محركة ـ كل نبات ذي أنابيب، والواحدة قصبة، والقصباء جماعتها. انظر القاموس المحيط.

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ص٣٩٣، معجم البلدان ١ / ٤٣٠، دائرة المعارف للبستاني ٥ / ٤٥٣.

(٥) معجم البلدان ١ / ٤٣٢.

على هذا المنوال، حتى ولي أمر البصرة أبو موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ من قبل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سنة (١٧هـ) فبنى المسجد ودار الإمارة باللبن، وكان المنبر في وسط المسجد، وكان الإمام إذا جاء للصلاة بالناس تخطى رقابهم إلى القبلة، فلما استعمل معاوية زياداً على البصرة، قال زياد: لا ينبغي للأمير أن يتخطى رقاب الناس فحوَّل دار الإمارة من الدهناء إلى قبل المسجد، وحول المنبر إلى صدره، فكان الإمام يخرج من الدار من الباب الذي في حائط القبلة إلى القبلة، ولا يتخطى أحداً، وزاد في حائط المسجد زيادات كثيرة، وبنى دار الإمارة باللبن، وبنى المسجد بالجص وسقفه بالساج، وجاء بسواريه من الأهواز[١].

وقيل: إن أرض المسجد كانت تربة، فكانوا إذا فرغوا من صلاة نفضوا أيديهم من التراب، فلما رأى زياد ذلك قال: لا آمن أن يظن الناس على طول الأيام أن نفض اليد في الصلاة سنة، فأمر بجمع الحصى وإلقائه في المسجد الجامع. فلما تولى الرشيد الخلافة هدم دار الإمارة وأدخلها في المسجد فلم يبق للأمراء بالبصرة دار إمارة[٢].

٣ ـ عمارة البصرة:

كان من الطبيعي بعد تمصير البصرة على يد عتبة بن غزوان أن ينزل بها العرب الفاتحون ويتقاطر إليها الناس من كل جانب، ثم تأخذ في الاتساع والعمران، فتقام فيها الأسواق، وتكثر المتاجر، وتنشأ الحمامات، وقد قسمت المدينة الجديدة إلى خطط تسكنها قبائل العرب المختلفة. وقد كانت البصرة وقت افتتاحها في ولاية عمر ـ كما يقول اليعقوبي ـ فرسخين في فرسخ، وكان بها سبع دساكر: اثنتان بالخريبة، وواحدة بالزابوقة، واثنتان بالأزد، واثنتان في تميم[٣].

ثم ما لبثت أن ازدحمت، فبلغ عدد سكانها من العرب ومن اختلط بهم من الموالي (ثلاثمائة) ألف نسمة وذلك قريب عام (٥٠هـ).

(١) معجم البلدان ١/٤٣٣.

(٢) فتوح البلدان ص٣٩٥، ومعجم البلدان ١/٤٣٤.

(٣) معجم البلدان ١/٤٣٣.

جاء في معجم البلدان عن يزيد الرشك أنه قال: قست البصرة في ولاية خالد بن عبدالله القسري سنة (١٠٥هـ) فوجدت طولها فرسخين، وعرضها فرسخين إلا دانقاً [١].

يقول الأستاذ زيدان: إنهم جعلوا المدينة خططاً بحسب القبائل، لكل قبيلة خطة، وجعلوا عرض شارعها الأعظم ستين ذراعاً، وهو مربدها، وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعاً، وجعلوا عرض كل زقاق سبعة أذرع، ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيولهم، وقبور موتاهم، وتلاصقوا بالمنازل[٢].

وقد بلغ من عظم شأن البصرة، وذيوع ذكرها، وتقدمها في الحضارة أن جعلها اليعقوبي مدينة الدنيا، ومعدن تجارتها وأموالها [٣].

وكانت خراسان على سعتها تابعة لها في حكمها زمن الأمويين، فكان ولاة البصرة هم حكامها [٤].

وقد بلغت قمة مجدها إبان الحكم العباسي، في جميع أشكال الحضارة والتقدم، فراجت تجارتها وأصبحت بحكم موقعها مركزاً للتجارة بين أوروبا والعراق والعجم والهند، فكثرت السفن الواردة إليها، والقوافل المقبلة عليها، تستبدل فيها ببضائع أوروبا والهند بضائع العجم، ولا سيما اللؤلؤ، ووجد بها معامل الديباج والحرير[٥].

وكانت هي وضاحيتها الأُبُلَّة مركز تجارة العرب البحرية.

وكانت مساجدها ومكتباتها غاصة بطلاب العلم، ورواد الأدب، يقصدها الناس من عرب وفرس وغيرهم، لتلقي العلوم، وسماع القصص، ودراسة الأدب والتفقه في الدين على

(١) معجم البلدان ١/٤٣٤.

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٢/١٧٠.

(٣) فتوح البلدان ص٣٢٣.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ص٦٦٩.

(٥) دائرة المعارف للبستاني ٥/٤٥٥.

أيدي علمائها الأعلام، وقد ازدهرت الحياة العقلية في البصرة إلى جانب تقدمها الاقتصادي، فكانت المكتبات العامة والمساجد أسمى ما يتوق إليه الأهالي في حياتهم[١].

٤ ـ سكانها:

عرفنا أن أول من نزل بالبصرة العرب المقاتلون الذين صحبوا عتبة بن غزوان، وكان ممن جاء معه أصهاره، وهم نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي، وأخواه أبو بكرة، وزياد بن أبيه، وأختهم أزدة بنت الحارث التي كانت زوجة لعتبة.

قال عوانة بن الحكم: لما قاتل عتبة أهل مدينة الفرات جعلت امرأته أزدة تحرض المؤمنين على القتال، وهي تقول: «إن يهزموكم يولجوا فينا الغُلْف»، ففتح الله على المسلمين تلك المدينة، وأصابوا غنائم كثيرة، ولم يكن فيهم أحد يحسب ويكتب إلا زياد، فولاه قسم ذلك الغنم، وجعل له كل يوم درهمين، وهو غلام في رأسه ذؤابة، كما كان معه مجاشع بن مسعود السُلمي، ومعقل بن يسار المزني، قال أبو المنذر: أول دار بنيت بالبصرة دار نافع بن الحارث، ثم دار معقل بن يسار المزني، وقد ذكرنا أنه وجد بها سويد بن قطبة الذهلي، فضمه إليه، ومن معه من بكر بن وائل، وبني تميم، ومن أوائل المقيمين بالبصرة الحجاج بن عتيك الثقفي، وشبل بن معبد بن عبيد العجلي، وعمران بن الحصين أبو نُجَيْد الخزاعي، وعوف بن وهب الخزاعي[٢].

وقال الأصمعي: لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة، ولد بها عبدالرحمن بن أبي بكرة، وهو أول مولود ولد بالبصرة، فنحر أبوه جزوراً أشبع منها أهل البصرة وكان أبو بكرة أول من غرس النخل بالبصرة، وقال: هذه أرض نخل ثم غرس الناس بعده[٣].

ثم وفد على هؤلاء غيرهم من العرب والموالي، فامتزجوا بهم وتفاعلوا معهم، ونشأ منهم جميعاً هذا الرعيل الأول من العلماء الذين استطاعوا أن يضربوا بسهم وافر فيما درسوا من علوم، بل الذين كان لهم من مواهبهم وعبقرياتهم ما مكنهم من أن يضعوا

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص٦٦٧.

(٢) معجم البلدان ١ / ٤٣٢.

(٣) المصدر السابق

أسس علوم ما لبثت بعد فترة قصيرة من الزمن أن أصبحت علوماً كاملة مستقلة، لها كل مقومات العلم، بل لها تفريعات العلم الدقيقة، وافتراضاته البعيدة التي يمكن أن توصف بأنها تعسفية، والتي دفعهم إليها اطلاعهم على ما ترجم من منطق وفلسفة أثّرا في تفكيرهم، ونحوا به منحىً فيه شيء من التعقيد[١].

ولقد كان عدد كبير من هؤلاء العلماء من الموالي، بل لعل جلهم كانوا منهم، فهؤلاء الموالي كانوا أصحاب حضارات قديمة، وعلوم مدروسة، ومدنيات موروثة، وقد اقتضت ظروفهم أن يختلطوا بالعرب، وأن يعيشوا معهم بعد أن تغلب العرب عليهم، وأخضعوهم لهم، فلم يكن هناك بد إذا أرادوا أن يكون لهم مكانة عند هؤلاء المتغلبين من أن يدرسوا لغتهم، وأن ينبغوا فيما يمكن أن يجدَّ في هذه الدولة الجديدة من علوم، وأن ينقلوا في أثناء ذلك شيئاً مما كان لهم من ثقافة، وبهذا يظهر فضلهم، وتظهر حاجة الدولة لهم، وهذا ما كان، فعظم شأنهم، وبعد صيتهم، وأصبحوا رؤوس مذاهب، وأصحاب مدارس، ومبتكري علوم،و مبدعي فنون[٢].

٥ ـ ارتباطها بالكوفة:

بين البصرة والكوفة ترابط قوي، لا تكاد تذكر البصرة حتى يسرع الذهن إلى توأمها الكوفة التي بنيت بعد البصرة بسنتين تقريباً، وتم تخطيطها على يد سعد بن أبي وقاص، وقد نزل بها المسلمون في السنة السادسة عشرة للهجرة[٣].

هذه المدينة نافست البصرة في كثير مما ازدهر فيها، فنافستها في أدبها، وفقهها، وعلمها، وبذتها في بعض هذه النواحي، وتخلفت عنها في بعضها الآخر.

وقد وجدنا لكل من هاتين المدينتين التوأمين من يمدح ومن يقدح.

---

(١) مدرسة البصرة النحوية ص٣٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكامل لابن الأثير ٢/ ٢٥٩.

جاء في معجم البلدان[١] كان ابن أبي ليلى يقول: ما رأيت بلداً أبكر إلى ذكر الله من أهل البصرة. وقال شعيب بن صخر: تذاكروا عند زياد البصرة والكوفة، فقال زياد: لو ضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها.

وقال ابن سيرين: كان الرجل من أهل البصرة يقول لصاحبه إذا بالغ في الغضب عليه: غضب الله عليك كما غضب على المغيرة، فعزله عن البصرة، وولاه الكوفة.

وقال ابن عيينة المهلبي يصف البصرة:

يا جنة فاقت الجنان فما	يعدُلها قيمة ولا ثمنُ
ألفتها فاتخذتها وطن	إن فؤادي لمثلها وطنُ
من سفن كالنعام مقبلة	ومن نعام كأنها السفنُ

وقال الأصمعي: سمعت الرشيد يقول: نظرنا فإذا كل ذهب وفضة على وجه الأرض لا يبلغ ثمن نخل البصرة.

وفي العقد الفريد[٢]: «قال جعفر بن سليمان: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، ودارين عين المربد».

وقال خالد بن صفوان: نحن منابتنا قصب، وأنهارنا عجب، وسماؤنا رطب، وأرضنا ذهب.

وقال أبو بكرة الهذلي لأهل الكوفة: نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً، وديباجاً وخراجاً، ونهراً عاجاً.

وقال الأحنف: نحن أبعد منكم سرية، وأغذى منكم برية، وأكثر منكم بحرية، وأكثر منكم ذرية[٣].

(١) ١/٤٣٦.

(٢) ٦/٢٦٦.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ٢/٧٣.

وأما ما جاء في ذمها فيذكر الجاحظ اختلاف هوائها في يوم واحد، فأهلها يلبسون القمص مرة، والمبطنات مرة، لاختلاف جواهر الساعات، ولذلك سميت الرعناء، قال الفرزدق:

لولا أبو مالك المرجو نائله ... ما كانت البصرة الرعناء لي وطنا

وقد وصف ابن لنكك تقلبها، واختلاف أحوالها فقال:

نحن بالبصرة في لو ... ن من العيش ظريف

نحن ما هبت شمال ... بين جنات وريف

فإذا هبت جنوب ... فكأنا في كنيف

وإذا كانت البصرة قد وجد لها من يمدحها أو يهجوها، فالكوفة كذلك لها مادحوها وقادحوها.

يقول اليعقوبي مادحاً أهل الكوفة: أهل الكوفة على قلة أموالهم أهل تجمل وتستر، وكفاف وعفاف، وليس في البلدان أشد عفافاً منهم، ولا أشد تجملاً، وهي طيبة الهواء، عذبة الماء، ماؤها الفرات الأعظم، وهي دار العرب، ومادة الإسلام، ومعدن العلم[1].

ويقول حميد بن عمير: الكوفة سفلت عن الشام ورباها، وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مريَّة مريعة، عذبة، ندية.

ويقول الحجاج: الكوفة بكر حسناء، والبصرة عجوز بخراء، أوتيت من كل حلي وزينة.

قال بعض أهل البصرة يعير أهل الكوفة: مررت ببعض طرق الكوفة، فإذا برجل يخاصم جاراً له، فقلت: ما لكما تختصمان؟ فقال أحدهما: لا والله، إلا أن صديقاً زارني

(١) معدن الجواهر للشيخ نعمان بن محمد ص١٦.

فاشتهى علي رؤوساً فاشتريت له، فتغدينا به، فأخذت عظام الرأس فألقيتها على باب داري، أتجمل بها عند جيراني، فأخذها هذا من بابي فوضعها على بابه، وقال: أنا اشتريته[١].

ومما نقم على أهل الكوفة أنهم أغدر الناس، طعنوا الحسن بن علي، وانتهكوا عسكره، وخذلوا الحسين بن علي بعد أن استدعوه حتى قتل، وشكوا سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، وزعموا أنه لا يحسن الصلاة، فدعا عليهم أن لا يرضيهم الله عن وال، ولا يرضي والياً عنهم، وشكوا عمار بن ياسر، والمغيرة بن شعبة، وطردوا سعيد بن العاص، وخذلوا زيد بن علي، وادعى النبوة فيهم غير واحد منهم المختار بن أبي عبيد الثقفي.

ولما أرادت السيدة سكينة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم الرحيل من الكوفة إلى المدينة بعد مقتل زوجها مصعب، حف بها أهل الكوفة وقالوا: أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله، فقالت: لا جزاكم الله خيراً من قوم، ولا أحسن الخلافة عليكم، قتلتم أبي، وجدي، وأخي، وعمي، وزوجي، أيتمتموني صغيرة، وأيمتموني كبيرة[٢].

نشأة علم الكلام[٣]:

لا شك أن علم الكلام الذي نريد أن نتناوله بالحديث عنه فن مدون متكامل، حاله كحال غيره من العلوم الإسلامية التي لم تكن موجودة في عهد الرسول ﷺ، ولا في الصدر الأول من عصر الصحابة رضوان الله عليهم، ولم تأخذ هذه العلوم طريقها إلى التدوين إلا بعد انقضاء الصدر الأول من عهد الصحابة، واشتداد الحاجة إليها، فقد كان علم الكلام كذلك قد تكوَّن وتأسس في البداية على أيدي المعتزلة الذين ظهروا في بداية القرن الثاني الهجري في مدينة البصرة التي كانت في ذلك العصر مجمعاً للعلوم والآداب في الدولة

(١) المصدر السابق ص١٤.

(٢) مدرسة البصرة النحوية ص٣٩.

(٣) انظر عن اسم هذا العلم: الباقلاني وآراؤه الكلامية ص٣٥-٣٦.

الإسلامية، مشبعاً جوها بآثار الثقافات الأجنبية والتي كانت مرتعاً يلتقي فيه أتباع الديانات المختلفة المنتشرة آنذاك، فتحتك مبادئ تلك الديانات بعضها ببعض، وتترك في نفوس أربابها أثراً بعيداً، وصدى عميقاً.

لذلك أرى لزاماً علي أن أقدم إلماعة موجزة عن بداية نشأة هذا العلم، وجذوره البعيدة التي قد تصل إلى عهد الرسول ﷺ.

في عهد الرسول ﷺ:

من المعلوم أن العرب حين بعث النبي ﷺ كانوا أصحاب ملل ونحل مختلفة، فبعضهم كان يهودياً، وبعضهم كان نصرانياً، والغالبية العظمى منهم كانت مشركة تعبد الأصنام، يقول المقدسي في كتابه «البدء والتاريخ»: كان فيهم من كل ملة ودين، وكانت الزندقة والتعطيل في قريش، والمزدكية والمجوسية في تميم، واليهودية والنصرانية في غسان، والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم[١]. ولما بعث الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة كانت دعوته قائمة على ترسيخ الاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالى في نفوس العرب، والتوحيد، وبكونه رسول الله، بعثه الله للناس بشيراً ونذيراً، وبوجود حياة أخرى بعد هذه الحياة، نبعث فيها لأجل المحاسبة على أعمالنا، وإثابة المطيع، وعقاب العاصي.

وبعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة أخذت الآيات القرآنية الكريمة تُعْنَى بالأحكام التشريعية العملية، التي تتعلق ببيان العبادات، وإصلاح أحوالهم الاجتماعية، والعلاقات الإنسانية، وغيرها، ورأوا في القرآن من الأدلة والحجج والبراهين الدامغة على إثبات هذه العقائد ما جعلهم يدينون لدعوته تباعاً، ويدخلون في دين الله أفواجاً.

وقد اشتهر بين كثيرين أن أصحاب رسول الله ﷺ ما كانوا يسألونه عن شيء من الأمور الاعتقادية كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك من كل ما علموا أن لله فيه أمراً ونهياً، وكما كانوا يسألونه عن أحوال الآخرة وعن الجنة والنار.

(١) البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي ١/٦١

يقول العلامة المقريزي المتوفى(ت: ٨٤٥هـ): «من أمعن النظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية، علم أنه لم يرد قط ـ من طريق صحيح ولا سقيم ـ عن أحد من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ على اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم، أنه سأل رسول الله ﷺ عن معنى شيء مما وصف الرب ـ سبحانه ـ به نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه ﷺ، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات، نعم، ولا فرق أحد منهم بين كونها صفة ذات أو صفة فعل، وإنما أثبتوا له تعالى صفات أزلية من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام، والجلال والإكرام والجود والإنعام، والعز والعظمة، وساقوا الكلام سوقاً واحداً، وهكذا أثبتوا ـ رضي الله عنهم ـ ما أطلقه الله ـ سبحانه ـ على نفسه الكريمة من الوجه واليد، ونحو ذلك، مع نفي المماثلة مع المخلوقين، فأثبتوا ـ رضي الله عنهم ـ بلا تشبيه، ونزهوا من غير تعطيل، لم يتعرض ـ مع ذلك ـ أحد منهم إلى شيء من هذا، ورأوا بأجمعهم إجراء الصفات كما وردت، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به على وحدانية الله تعالى، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله تعالى، ولا عرف أحد منهم الطرق الكلامية، ولا مسائل الفلسفة، فمضى عصر الصحابة على ذلك»(١).

وإني أرى أن هذا القول من العلامة المقريزي دعوى ينقصها الدليل، ولا يمكن أن يقبل على عمومه، وأن عصر الرسول ﷺ لم يخل مطلقاً من بعض بذور علم الكلام، بل قد وجدت فيه بعض بذوره، وأن التساؤل والجدل كان يلح على بعض المسلمين في هذا العصر.

روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب العلم بسنده عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: هَجَّرت إلى رسول الله ﷺ يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»(٢).

(١) الخطط والآثار ٤/ ١٨٠.

(٢) مسلم ـ كتاب (العلم) باب (النهي عن اتباع متشابه القرآن) برقم (٢٦٦٦) ٤/ ٢٠٥٣.

وروى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم»[١].

وكذلك روى الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: وكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض، بهذا هلك من كان قبلكم»[٢].

وأخرج البخاري وغيره أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[٣]، قيل لرسول الله ﷺ: ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»[٤].

وأورد البياضي رواية للحافظ أبي بكر البزار في مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أنه تناظر أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - في القضاء والقدر، وتحاكما إلى رسول الله ﷺ، فقضى بأن القدر كله من الله[٥].

وهناك روايات كثيرة في الصحاح أضربت عن ذكرها خوفاً من الإطالة، وهي تدل دلالة قاطعة على أن رسول الله ﷺ كان يواجه الأسئلة من المشركين، ومن أهل الكتاب ،ومن المسلمين، وكان يجيب عليها إذا لم تظهر عليها سمة العناد والمراء، وكانت تتناول أدق المسائل الإلهية، ولم يكن يمنع البحث في هذه الأمور بإطلاق، وإنما كان يمنعها في صورة الجدل والمراء الذي يتجاهل دواعي الإيمان، ولا تتوفر له دواعي الحاجة النفسية الحقيقية، فلا

(١) البخاري في كتاب التفسير باب منه آيات محكمات برقم (٤٢٧٣) ٤/١٦٥٥، طبعة: البغا.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢/١٧٨.

(٣) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٤) رواه البخاري بلفظ: قلت يا رسول الله، فيما يعمل العاملون، قال: «كل ميسر لما خلق له» برقم (٧١١٢) ٦/٢٧٤٥، وفي رواية: قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» رقم (٤٦٦٦) ٤/١٨٩١.

(٥) إشارات المرام ص٣٣، والبحر الزخار ٦/٤٥٥-٦٥٦ برقم (٢٤٩٦).

نرى داعياً للقول بأن الرسول ﷺ قفل باب الجدل مطلقاً، بل إنما أقام له حدوداً، وفي داخل هذه الحدود يجري الجدل مع الخصوم بقصد صرفهم عن أباطيلهم، وإدخالهم في الدعوة، إذا ما تبين استعدادهم لذلك، وفي داخل هذه الحدود يجري الجدل مع الآخرين من المؤمنين في إطار الإيمان.

ولنا أن نذهب إلى ما ذهب إليه ابن قيم الجوزية من أن الصحابة كانوا يخوضون مع الرسول ﷺ في دقائق المسائل، ويتفهمون عنه حقائق الإيمان، ولا يقتصرون على مسائل العمل، وكانوا يوردون على رسول الله ﷺ ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات، فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم، وقد أورد عليه ﷺ الأسئلة أعداؤه وأصحابه... أعداؤه للتعنت والمغالبة، وأصحابه للفهم والبيان، وزيادة الإيمان، وهو يجيب كلاً عن سؤاله إلا ما لا جواب عنه كسؤاله عن وقت الساعة...[(١)]

ومهما يكن من أمر فإن الذي لا يختلف عليه اثنان أن بيئة المسلمين في عصر الرسول ﷺ كانت تحتوي على بذور التفكير في مسائل العقيدة، ويخطئ من يظن أن البيئة الإسلامية في ذلك الوقت لم تكن تزاول نشاطاً فكرياً حول العقيدة الإسلامية.

عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ:

لا شك أن كثيراً من المسائل الكلامية كانت تدور في أذهانهم، وتجري على ألسنتهم، يبدو ذلك بوضوح في ردودهم على المخالفين، وجدالهم مع المنحرفين، أو في أجوبتهم للسائلين عن هذه المسائل الاعتقادية، وإليك نماذج من هذه المسائل التي ظهرت في أقوالهم، والتي يمكن أن تعد لبنات أساسية في بناء صرح هذا العلم الجليل.

١ ـ روي عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنه سئل عن الكلالة فقال: أقول فيها برأيي، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان[(٢)].

---

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية ٣/٥٧.

(٢) أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ١/٢٤٥.

وقد استنتج المعتزلة من هذا أن أبا بكر في هذا مصرح بالعدل، منكر للجبر.

٢ ـ روي أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أتي بسارق فقال له: لم سرقت؟ فقال: قضى الله علي، فأمر به فقطعت يده، وضربه أسواطاً، فقيل له في ذلك، فقال: القطع للسرقة، والجلد لما كذب على الله[١].

يستنتج المعتزلة من هذا أن عمر كان قدرياً، ولا نرى استنتاجهم صحيحاً، إذ أن كلامهما وإن كان فيه نفي للجبر، إلا أنه لا يدل على أن العبد خالق لأفعاله، بل قد يدل على أن العبد فاعل مختار وله الكسب، وليس بمجبر.

٣ ـ أخرج الدارمي في مسنده عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن «كأنه يتعمد التشويش والبلبلة»، فأرسل إليه عمر وقد أعدّ له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: عبد الله صبيغ فأخذ عرجوناً من تلك العراجين، فضربه حتى دمى رأسه، وفي رواية عنه أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري ـ بعد ضربه ـ ألا يجالسه أحد من المسلمين[٢].

٤ ـ يروي الخطيب البغدادي أن قسّاً اعترض على عمر ـ رضي الله عنه ـ عندما كان قائماً يخطب الناس بالجابية، فقال في خطبته: إن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فقال القس: برقست[٣]، الله أعدل أن يضل أحداً، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فبعث إليه فقال له: بل الله أضلك، ولولا عهدك لضربت عنقك[٤].

٥ ـ ويروى أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال لمحاصريه عندما رموه قائلين: «الله يرميك»،

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص٨.

(٢) صون المنطق للسيوطي ص١٧، والدارمي ١/ ٥٨.

(٣) لعلها برقشت، من برقش الكلام أي خلطه، انظر المعجم الوسيط.

(٤) تاريخ بغداد ١١/ ٢٩٠-٢٩١.

قال: «كذبتم لو رماني ما أخطأني»، وهذا أيضاً يجد فيه المعتزلة مستنداً لمذهبهم في القدر[١].

٦ ـ روي أن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ قيل له: ظهر في زماننا رجال يزنون ويسرقون ويشربون الخمر ويقتلون النفس التي حرم الله، ثم يحتجون علينا ويقولون: كان ذلك في علم الله، فغضب ابن عمر وقال: «سبحان الله، كان ذلك في علم الله، ولم يكن علمه يحملهم على المعاصي»[٢].

لعل هذه العبارة من ابن عمر هي التي نبهت أذهان المتكلمين فيما بعد أن يصوغوها في قاعدة كلامية، مفادها: أن علم الله في الأزل بما يحصل للعبد، وما يصدر منه لا يجبره على فعل ما يفعل، لأن العلم صفة كاشفة، وليس صفة مجبرة.

٧ ـ يذكر الغزالي أن علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ناظر رجلاً من القدرية، وقام رجل ممن شهد معه الجمل، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر، فقال: بحر عميق فلا تلجه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن القدر، فقال: سر الله فلا تبحث عنه، فقال يا أمير المؤمنين: أخبرنا عن القدر، فقال: لما أبيت، أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض، فقال: يا أمير المؤمنين إن فلاناً يقول بالاستطاعة، وهو حاضر، فقال: علي به، فأقاموه، فلما رآه قال له: الاستطاعة تملكها مع الله، أو من دون الله؟ فإياك أن تقول أحدهما فترتد، قال: فما أقول يا أمير المؤمنين؟ قال: قل: أملكها بالله إن شاء ملكنيها[٣].

٨ ـ وروي أنه كان في مجلس فيه عمر ـ رضي الله عنه ـ فجاء رجل يسأل عن القرآن: أمخلوق هو أو غير مخلوق؟ فقال علي كرم الله وجهه: «هذه كلمة وسيكون لها ثمرة، ولو وليت من الأمر ما وليت (يخاطب عمر رضي الله عنه) لضربت عنقه»[٤].

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص٨.

(٢) مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ٢ / ١٦٢.

(٣) إحياء علوم الدين ١ / ٧١، ومناقب الشافعي للرازي ص٨٠.

(٤) صون المنطق للسيوطي ص١٨.

هنا يظهر علي وهو على نفس طريقة عمر ـ رضي الله عنهما ـ في لجوئه إلى الشدة والعقاب ضد مثيري الشكوك والآراء الملتبسة في مسائل العقيدة، لكن علياً ـ رضي الله عنه ـ غير موقفه عندما آل إليه الأمر، ولم يستمر على رأيه في استخدام الأسلوب الأول، وذلك بسبب تغير الجو الفكري السائد عندما انتقل الشذوذ من حال كان فيها يمكن القضاء عليه بعراجين النخل إلى حال أصبح فيها أقوى من ذلك، وأحوج إلى مواجهة فكرية تعضد المواجهة العملية، وموقفه ـ رضي الله عنه ـ من مجادلة الخوارج معروف، تذكر جميع كتب الفرق والنحل مجادلته ومجادلة ابن عمه عبدالله بن عباس للخوارج.

يورد الغزالي على لسان الموجبين لعلم الكلام، أن أول مَنْ سنَّ دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، إذ بعث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ إلى الخوارج فكلمهم، فرجع إلى الطاعة بمجادلته ألفان منهم[١].

وهناك روايات أخرى كثيرة تبين ما كان يجري في عهد الصحابة من تساؤلات، ومواقف الصحابة منها، تركتها خوف الإطالة، وفيما ذكرته كفاية للدلالة على أن مسائل الكلام كانت تبحث في عهد الصحابة، وأن هذه المسائل أصبحت بعد ذلك أساس علم الكلام.

عصر التابعين:

أما عصر التابعين فقد سال فيه الكلام سيلاً، وهو العصر الذي أفرخت فيه المذاهب والفرق، وكان كثير منهم على رأس هذه الفرقة أو ذلك المذهب، لذلك لا نجد داعياً للبحث عن ظهور مسائل الكلام في هذا العصر؛ لأن علم الكلام قد ظهر وتم تدوينه فيه، وأعلن عن نفسه كعلم مستقل متكامل، والقائمون عليه أول الأمر كانوا هم المعتزلة، ومما لا شك فيه أن المعتزلة قد تأثروا في آرائهم الكلامية بمن سبقوهم في نشر هذه الآراء، وأن أكثر هذه الآراء، كمسألة الجبر والاختيار، ومسألة الصفات وغيرها كانت تدور في رؤوس بعض الناس في عصر الصحابة، وأن كثيراً من علماء الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يهاجمون هذه الآراء، ويقيمون لدحضها

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٧١.

الحجج والبراهين.

وكذلك سبقت ظهورَ المعتزلة كمدارس أكاديمية منظمة، طائفتان لهما شأن كبير في تاريخ الفكر، وشغلتا المسلمين فترة من الزمن، هما الجهمية والقدرية، وإن كثيراً من آراء هاتين الطائفتين نجدها تتفق مع آراء المعتزلة، كنفي الصفات، وحرية العبد في مشيئته، وفعله، ونفي الرؤية، وإيجاب المعارف بالعقل قبل ورود الشرع، وغير ذلك من المسائل الكلامية.

لذلك أميل إلى اعتبار هؤلاء الجهمية والقدرية أسلافاً للمعتزلة.

يقول الشهرستاني عن المعتزلة: إنهم في القول بالقدر سلكوا مسلك معبد الجهني، وغيلان الدمشقي[١].

لقد أصبح التلاحم الفكري بين هؤلاء وأولئك بحيث أطلق كثير من الأئمة الأعلام لفظ الجهمية على المعتزلة.

يقول الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي: إن الأئمة المتأخرين الذين كتبوا في الرد على الجهمية كابن حنبل والبخاري، ومن جاء بعدهم إنما عنوا بالجهمية المعتزلة، أما أئمة السنة المتقدمون الذين ردوا على الجهمية فقد كانوا يقصدون الجهمية الأولى، لأنها سابقة على المعتزلة[٢].

وهذا القول يظهر جلياً في كلام الشيخ ابن تيمية الحراني[٣]، وكلام تلميذه ابن قيم الجوزية[٤]، وكذلك نرى ابن قتيبة الدينوري[٥] والبغدادي[٦] في كلامهما عن القدرية

---

(١) الملل والنحل ١/٥١.

(٢) تاريخ الجهمية والمعتزلة ص٤٤.

(٣) بغية المرتاد ص٦٧ وما بعدها.

(٤) الصواعق المرسلة ١/٢٤١ وما بعدها.

(٥) كتاب المعارف ص٢٠٧.

(٦) أصول الدين ص٩٤– ١٣٥ وما بعدها.

والمعتزلة لا يفرقان بينهما، بل يتحدثان عنهما كأنهما فرقة واحدة.

لذلك أرى أنه من الضروري أن أكتب نبذة عن هاتين الطائفتين ـ الجهمية والقدرية ـ قبل الكلام في المعتزلة.

١ ـ الجهمية:

أتباع جهم بن صفوان المكنى بأبي محرز، وكان مولى لبني راسب من الأزد، دعا إلى مذهبه في ترمذ، ثم أقام في بلخ، وكان يحصل بينه وبين مقاتل بن سليمان المفسر مناقشات ومجادلات، وكان مقاتل من المثبتين للصفات، والجهم من النفاة، وبالغ كل منهما فيما ذهب إليه، حتى روي عن أبي حنيفة أنه قال: أفرط جهم في نفي التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشيء، وأفرط مقاتل في معنى الإثبات حتى جعله مثل خلقه[١] .

وكان جهم من أنصار الحارث بن سريج في خروجه على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وانتهى الأمربمقتل الحارث عام (١٢٨هـ) ووقوع جهم أسيراً في يد سلم بن أحوز فأمر بقتله، ويقال: إن جهماً أخذ أكثر أقواله من جعد بن درهم[٢].

وكان الجهم جبرياً لا يثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً، وكان ينفي الصفات، ويقول بخلق القرآن، وفناء الجنة والنار، وفناء حركات أهلهما، وينكر رؤية الله تعالى، وكان يوجب المعارف بالعقل قبل ورود الشرع[٣].

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال الدين القاسمي ص٧، والعالم والمتعلم لأبي حنيفة ص١٣.

(٢) كان جعد مولى لبني الحكم، وكان يسكن دمشق، أظهر مقالته في زمن هشام بن عبدالملك، فأخذه هشام وأرسله إلى خالد بن عبدالله القسري أمير العراق، يأمره بقتله، فلما كان يوم الأضحى صلى خالد بالناس في مسجد الكوفة، وقال في آخر خطبته: انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم أضاحيكم، فإني مضح اليوم بجعد ابن درهم، فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليماً ولا اتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل وذبحه في أسفل المنبر. انظر في ذلك: الفرق بين الفرق ص١٢٨، والبداية والنهاية لابن كثير ١/٢٦-٢٧.

(٣) الملل والنحل ١/٨٦ وما بعدها، والمقالات للأشعري ١/٣٣٨.

٢ـ القدرية:

هم القائلون بقدرة العبد على خلق أفعاله، وأنكروا القدر، سموا القدرية لذلك، أو لأنهم اتخذوا من القدر موضوعاً لبحثهم ودراستهم[١].

لقد كان البحث في القدر من أوائل المسائل التي ثار حولها التساؤل، ثم الجدل بين المسلمين، ولقد رأينا ما كان من بوادر ذلك في عصر الرسول ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم، وكان من رواد هذا المذهب الذين ظهروا بالفعل في زمن المتأخرين من الصحابة، واتخذ منهم الصحابة موقف التبرؤ والإنكار، عمر المقصوص المتوفى سنة (٨٠هـ)، كان رائد القول بالقدر، ظهر بدمشق، وكان أستاذاً للخليفة معاوية بن يزيد بن معاوية، فقتله الأمويون بتهمة إفساد الخليفة[٢]. ويأتي بعده معبد الجهني المتوفى سنة (٨٠هـ) ذهب في البصرة مذهب عمر المقصوص في الشام، وكان يجالس الحسن البصري، فاقتدى به جماعة من المسلمين، منهم عمرو بن عبيد المعتزلي، وقد سلك بعض أهل البصرة مسلكه في نفي القدر. وقدم المدينة فأفسد فيها ناساً، وتبعه قوم، وقاومه الصحابة، وخرج معبد مع ابن الأشعث فأخذه الحجاج فعذبه ثم صلبه بأمر عبدالملك بن مروان[٣].

وتأتي بعد معبد الشخصية البارزة بين رجال القدرية (غيلان بن مروان الدمشقي) الذي أخذ القول بنفي القدر عن معبد الجهني، وتمادى فيه فأحضره عمر بن عبدالعزيز، ووبخه، وبلغه بعد ذلك أن غيلان أسرف في القدر، فاستدعاه إليه وامتحنه، وكان يود أن يذبحه، لو لم يتراجع غيلان، ويعلن توبته، فأمسك غيلان عن الكلام إلى أن مات الخليفة، فسال في القدر كالسيل، فجاء به هشام بن عبدالملك، وكان شديداً على القدرية، فامتحنه فأقر بنفي القدر فأمر به، فقطعت يداه، ورجلاه، فمات وصلب على باب دمشق[٤].

---

(١) انظر بحوث في المعتزلة لنلينو ص٧٣-٧٤.

(٢) تاريخ مختصر الدول لابن العبري ص١٩١.

(٣) البداية والنهاية ٩/٣٤، وميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣/١٨٣، والخطط للمقريزي ٤/١٨١.

(٤) انظر التنبيه والرد للملطي ص١٦٨، والمعارف لابن قتيبة ص٢١٢، وسرح العيون لابن نباتة ص١٥٧.

٣ـ آراء غيلان الكلامية:

كان غيلان يقول بقدرة العبد على أفعاله، وليس للقدر سلطان عليه، وأما رأيه في القرآن فهو كرأي جهم في أن القرآن مخلوق، وفي الصفات فكان مثل المعتزلة في الذهاب إلى نفي الصفات، وأما رأيه في الإيمان فإنه كان يذهب فيه إلى رأي المرجئة في أن الإيمان هو المعرفة، والإقرار بالله تعالى، وبرسله عليهم السلام، وأن الإيمان لا تضر معه معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة [(١)]، وقد ذهب غيلان إلى أن الاستطاعة هي السلامة، وصحة الجوارح، وتخليتها من الآفات، وهو نفس ما ذهب إليه بشر بن المعتمر، وثمامة بن الأشرس من المعتزلة من بعد[(٢)] .

وكانت له آراء أخرى كثيرة لكنه لم يشتهر إلا بقوله في القدر.

ومهما يكن من أمر الجهمية والقدرية، فإن الذي يعنينا هنا هو أن المعتزلة ظهرت في البصرة تحت تأثير التيارات الفكرية المختلفة التي وجدوها، وكانت تعاليمهم خليطاً من أقوال القدرية والجهمية، فإنهم وافقوا القدرية في نفي القدر، ووافقوا الجهمية في جميع أقوالها ما عدا الجبر، فإنهم خالفوها فيه، وتحاملوا عليه.

لقد ذابت الجهمية وانقرضت القدرية، ولكن تعاليمهما بقيت محفوظة في فرقة المعتزلة. فالاعتزال كفرقة منظمة بدأ في حدود سنة (١٠٠هـ)، على يد واصل بن عطاء، المولود عام (٨٠هـ) والمتوفى عام (١٣١ هـ)، ثم أتى بعده بقية رجالات الاعتزال، كعمرو ابن عبيد المتوفى عام (١٤٤هـ)، وأبي هذيل العلاف شيخ المعتزلة البصريين المولود عام (١٣٥هـ) والمتوفى عام (٢٢٦هـ)، والنظام المتوفى عام (٢٣١هـ)، ومعمر بن عباد السلمي المتوفى عام (٢٢٠هـ)، وبشر المعتمر المتوفى عام (٢٢٦هـ)، وثمامة بن أشرس المتوفى عام (٢١٣هـ)، وهشام بن عمرو الغوطي المتوفى عام (٢٢٦هـ)، وعمرو بن بحر الجاحظ المتوفى

(١) الملل والنحل ١/٢٢٧.

(٢) المقالات للأشعري ١/٢٧٤.

عام (٢٥٦هـ)، وأبي علي الجبائي المتوفى عام (٣٠٣هـ)، وغيرهم.

وكان كل واحد من هؤلاء على رأس مدرسة فكرية من مدارس الاعتزال، وأن كل واحد منهم يختلف عن الآخرين في بعض المسائل الجزئية، انفرد بها دونهم، كما هو معروف في كتب الفرق إلا أن الأمور التي تجمعهم هي ما يلي:

١ ـ نفيهم عن الله عز وجل صفاته القديمة الأزلية.

٢ ـ اتفاقهم على القول بحدوث كلام الله عز وجل، وحدوث أمره، ونهيه، وخبره.

٣ ـ اتفاقهم على أن العبد قادر خالق لأفعاله، خيرها وشرها، وليس الباري سبحانه وتعالى خالقاً لأفعالهم، ولا قادراً على شيء من أعمالهم.

٤ ـ اتفاقهم على أن الفاسق من أمة الإسلام في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، وإذا خرج من الدنيا من غير توبة استحق الخلود في النار، ولكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار.

٥ ـ اتفاقهم على استحالة رؤية الله تعالى بالأبصار، وزعموا أنه لا يرى نفسه ولا يراه غيره.

٦ ـ اتفاقهم على أن الحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، وأنه يجب على الله تعالى من حيث الحكمة رعايةُ مصالح العباد[(١)] .

ظهور المعتزلة:

الآن بعد أن عرفنا أن علم الكلام قد ظهر كعلم متكامل مستقل على أيدي المعتزلة بدءاً بواصل بن عطاء في بداية القرن الثاني الهجري، وعرفنا أن مكان ظهور هذا العلم وتكوُّنه وولادته كان في البصرة، وأن رجاله كانوا تلامذة في حلقات دروس الحسن البصري

(١) انظر في كل ما تقدم: الملل والنحل ١/٤٤–٤٥، والفرق بين الفرق ص٦٨، والتبصير في الدين للإسفراييني ص٣٨.

الذي كان يقيمها في مسجده بالبصرة، بقي أن نعرف العوامل التي دفعت هؤلاء إلى أن يستقلوا بأنفسهم، وبمبادئهم تحت عنوان فرقة منظمة لها فلسفتها الخاصة في جميع مناحي العقيدة، وامتازوا باستخدام العقل في براعة فائقة، معتمدين على الأدلة والحجج العقلية في تناول مسائل الكلام.

في رأيي أن المعتزلة قاموا بما قاموا به تحت تأثير عاملين يعدان من أبرز العوامل التي أحدثت تأثيرها في تشكيل فرقة المعتزلة، وهما:

١ ـ الخلافات التي حدثت بين المسلمين.

٢ ـ تأثير الديانات والفلسفات الأخرى.

فلنتكلم بإيجاز عن هذين العاملين.

١ ـ محاولة إيجاد حل لمشاكل الخلاف بين المسلمين:

من المعروف أنه بعد ركود حركة الفتوح، واستقرار المسلمين في الأمصار نشأت بينهم مشاكل اجتماعية كثيرة كان حتماً عليهم أن يدرسوها، ويجدوا لها حلولاً يقبلها الدين وتنسجم مع روح الشريعة السمحة، والمشكلة التي أثارت اهتمامهم أكثر من غيرها هي: مشكلة مرتكبي الكبائر من المسلمين، فقد ظهر إقدام الناس على ارتكاب الكبائر، والاختلاف على الخلافة، الأمر الذي تسبب في حدوث فتن أدت إلى مصرع عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وأشعلت الحرب بين علي بن أبي طالب وأصحاب الجمل، ثم بين علي ومعاوية، فتفرق المسلمون أحزاباً وشيعاً، ووقعوا في صراع دموي رهيب، أجرى دماءهم الزكية أنهاراً، وذهب بكثير من أعلام الصحابة، ورؤوس الإسلام، فانشغلوا بذلك عن أعمال الفتوح والعمران، يضاف إلى ذلك أن المسلمين انتقلوا بعد الفتح من محيط الصحراء الضيق إلى محيط واسع فيه كثير من ضروب اللهو والترف، وأسباب الفساد، فحز ذلك في نفوس القوم، ولا سيما أقطاب الدين، وأرباب العلم، وساءهم أن يروا إخوانهم في الدين يجترئون على المعاصي، أو يقتل بعضهم بعضاً، فعكفوا على هذه المشكلة يدرسونها، ويصدرون

أحكامهم فيها مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، كل حسب اجتهاده، فكثرت في ذلك المناظرات، واشتدت المجادلات، واختلف الرأي.

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن مرتكب الكبيرة من المسلمين يعد مؤمناً، فكبيرته لا تخرجه من الإيمان ولا تدخله في الكفر، لبقاء التصديق الذي هو حقيقة الإيمان، فأمره موكول إلى الله تعالى، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه[١].

وأما الخوارج فقد رفضوا حكم أهل السنة في مرتكب الكبيرة، فقالوا: إن مرتكب الذنوب كبيرة كانت أو صغيرة، كافر مخلد في النار، وذلك لأنهم كانوا يعتبرون العمل جزءاً من الإيمان.

وكما رفض الخوارج حكم أهل السنة، اعترض المرجئة على حكم الخوارج، وكوَّنوا في مرتكب الكبيرة رأياً جاء رداً عليهم قبل غيرهم، فقالوا: إن مرتكب الكبيرة مؤمن، وأنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الإيمان وحده كافٍ، ولا شأن للعمل فيه[٢].

ثم تعاظم الخلاف، واحتدم الجدال بين الفرق الإسلامية، وصارت تعقد في مساجد البصرة وغيرها حلقات المناظرة التي كان أهمها وأشهرها حلقة الحسن البصري، والمعروف أن الحسن البصري حاول أن يحل هذه المشكلة فقال: إن مرتكب الكبيرة المسلم منافق[٣].

ولكن البغدادي يسفه هذا القول، ويرى أن المنافق شر من الكافر المظهر للكفر[٤].

ويمكن تأويل كلامه على أن المسلم الذي يدعي الإيمان ثم يرتكب الكبيرة، يكون عمله هذا يجعله شبيهاً بالمنافقين، لا أنه منافق بالمعنى الاصطلاحي الذي هو «يظهر الإسلام ويبطن الكفر».

---

(١) شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص١١٧.

(٢) الملل والنحل ١/١٤٥.

(٣) الانتصار ص١٦٤، وشرح العقائد النسفية ص١١٩.

(٤) الفرق بين الفرق ص٩٧.

هنا ظهر واصل بن عطاء، فخالف الجميع، ورأى أن المؤمن المرتكب للكبيرة لا يمكن أن يحكم عليه بالكفر أو النفاق، لوجود الإيمان فيه، ولا يمكن أن يحكم عليه بالإيمان، لأن عمله عمل أهل الكفر، لا عمل أهل الإيمان، لذلك حكم عليه بأنه لا هو مؤمن، ولا هو كافر، بل هو في منزلة بين منزلتي الإيمان والكفر[١].

يروي المؤرخون قصة عن ظهور المعتزلة، ومبدأ انشقاقهم على الحسن البصري، وهي كما يلي:

«دخل رجل على الحسن البصري وهو يدرس في مسجد البصرة فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة، وهم وعيدية الخوارج، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. وهم مرجئة الأمة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ فتفكر الحسن، وقبل أن يجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر.

ثم قام واصل واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة ممن ترك مجلس الحسن وانضم إليه، فقال الحسن: «اعتزل عنا واصل»، فسمي هو وأصحابه معتزلة»[٢]، هكذا ظهر المعتزلة وكان رئيسهم الأول ومؤسس فرقتهم واصل بن عطاء، وقد ظهر مما تقدم أن المسلمين في الوقت الذي ظهرت فيه هذه الفرقة كانت لهم بعض المشاكل الحيوية، وأن المعتزلة قاموا بمحاولة حل تلك المشاكل.

٢ ـ أثر الديانات والفلسفات الأخرى:

هذا هو العامل الثاني الذي أثر في ظهور المعتزلة، وذلك لأن المسلمين بعد الفتوحات الإسلامية اختلطوا بغيرهم من الأقوام التي كانت لهم ديانات وفلسفات مختلفة، ففي

(١) الانتصار ص١٦٤، والعقائد النسفية ص١١٩.

(٢) الملل والنحل ١/٥٥، وشرح العقائد ص٥.

سورية ومصر التقوا بالمسيحية واليهودية، وفي العراق وفارس كانت المجوسية بفرقها المتعددة، والصابئة والسمنية وغيرها، فتأثروا بآرائهم وأفكارهم، وتسربت إلى مجتمع المسلمين من عقائدهم ـ نتيجة هذا الاحتكاك ـ أمور لم يكن أئمة السلف يقرونها، ولا يرضون بها.

وقد تم ذلك التأثر بطرق مختلفة، فمن أهل تلك الأديان من تركوا أديانهم، ودخلوا في الإسلام، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من عقائدهم القديمة، فأخذوا ينقلون إلى المسلمين ـ عن غير تعمد أو سوء قصد ـ بعض تلك المعتقدات وينشرونها بينهم.

ومنهم من أسلم لا عن إيمان به، وإخلاص له بل لتحقيق غايات في نفوسهم، وهؤلاء على الأكثر كانوا من المجوس، كان بعضهم يدخل في الإسلام طمعاً في مال يجنيه، أو جاه يناله، وبعض آخر منهم دخلوا الإسلام بدافع الحقد على المسلمين الذين هزموا دينهم، ودكّوا عروشهم، وهدموا ملكهم، لذلك كان مقتهم للمسلمين شديداً، فأظهروا الإسلام، وأبطنوا عداوته، ودأبوا على محاربته، والكيد له، فهم ما انفكوا ينفثون ما في صدورهم من الغل والغيظ، ويروجون بين المسلمين من الأفكار والآراء ما لا تقره العقيدة الإسلامية حباً في تشويهها، ورغبة في إفسادها.

يقول ابن حزم: إنهم رأوا أن الكيد للمسلمين على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة آل بيت رسول الله ﷺ، واستشناع ظلم علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وسلكوا بهم مسالك مختلفة حتى أخرجوهم عن الإسلام[١].

ويرى البغدادي أن البدع والضلالات ما ظهرت إلا من أبناء السبايا [٢].

وقد اصطلح المسلمون على تسمية أولئك الذين يظهرون الإسلام ويبطنون عداوته بالزنادقة.

وقد كان لليهود ـ ولا شك ـ بعض الأثر في ظهور المعتزلة، ويظن أنهم هم الذين نشروا

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ٢ / ٩١ والخطط ٤ / ١٩٠.

(٢) مختصر الفرق بين الفرق ص١٠٠.

المقالة في خلق القرآن.

روى ابن الأثير أن أول من نشرها منهم لبيد بن الأعصم اليهودي الذي كان يقول بخلق التوراة، ثم أخذ ابن أخته طالوت هذه المقالة عنه، وصنف في خلق القرآن، فكان أول من فعل ذلك في الإسلام، وكان طالوت هذا زنديقاً فأفشى الزندقة[١].

وذكر الخطيب البغدادي أن بشراً المريسي المتوفى (٢١٨هـ) المرجئ المعتزلي أحد كبار الدعاة إلى خلق القرآن، كان أبوه يهودياً صباغاً بالكوفة[٢] .

وفي رواية أخرى لابن قتيبة: أن أول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعيد العجلي المتوفى (١١٩هـ)، وكان من أتباع عبدالله بن سبأ اليهودي[٣] لكن الديانة التي كان أثرها في الاعتزال أكبر من أثر غيرها هي المسيحية، فالأدلة القائمة على تأثر المعتزلة بالمسائل اللاهوتية التي أثارها المسيحيون كثيرة، منها أن الأمويين قربوهم إليهم، واستعانوا بهم وأسندوا إليهم بعض المناصب العالية، فقد جعل معاوية بن أبي سفيان سرجون بن منصور الرومي المسيحي كاتبه وصاحب أمره[٤]. وبعد وفاة معاوية بقيت لسرجون مكانته، فكان يزيد بن معاوية يستشيره في الملمات ويسأله الرأي[٥] ثم ورث هذه المكانة ولده يحيى الدمشقي[٦] الذي خدم الأمويين زمناً ثم اعتزل العمل سنة (١١٢هـ) والتحق بأحد الأديرة القريبة من القدس حيث قضى بقية حياته يشتغل في الأبحاث الدينية، ويصنف الكتب اللاهوتية، ولا يجهل أحد منا ما كان للأخطل الشاعر المسيحي من مكانة

(١) الكامل في التاريخ ٧/ ٤٩.

(٢) تاريخ بغداد ٧/ ٦١.

(٣) عيون الأخبار ٢/ ١٤٨.

(٤) الطبري ٦/ ١٩٤-١٩٩، وابن الأثير ٤/ ١٧.

(٥) الطبري ٦/ ١٩٤، وابن الأثير ٤/ ١٧.

(٦) هو يحيى الدمشقي، كان عالماً كبير القدر من علماء الدين، وقديساً محترماً في الكنيستين الشرقية والغربية.

لدى الأمويين حيث قدموه، وأغدقوا عليه العطايا، وجعلوه شاعر بلاطهم، وكان يرد على أعداء بني أمية ويهجوهم[١].

إن احتكاك المسلمين بأولئك المسيحيين لا يمكن أن يكون قد مضى دون أن يترك فيهم أثراً، ولا سيما برجل عبقري كيحيى الدمشقي الذي كان آخر علماء اللاهوت الكبار في الكنيسة الشرقية، وأعظم علماء الكلام في الشرق المسيحي، إن مجرد وجود يحيى الدمشقي وأمثاله من علماء النصارى بين المسلمين كاف في إحداث التأثير، فكيف إذا تجاوز الأمر حد التجاور، واشترك المسلمون والنصارى في مناظرات دينية، وطال بينهم الجدل، واشتد الحوار، هؤلاء يؤيدون دينهم، وأولئك يبرهنون على صحة معتقدهم.

وقد كانت هذه المناظرات مألوفة في ذلك الزمان، فقد ورد في كتابات يحيى الدمشقي وتلميذه تيودور أبي قرة نماذج من محاورات جرت بين المسلمين وبين المسيحيين، واشترك فيها يحيى الدمشقي، وكان يبدؤها هكذا: إذا قال لك العربي كذا وكذا أجبه بكذا[٢].

بعد هذا الكلام تبين لنا بوضوح أثر هذه الديانات والفلسفات المختلفة في ظهور المعتزلة، وقد أدرك المعتزلة قبل غيرهم الخطر الأكيد الذي يتهدد الإسلام من هذه الشبهات والتلبيسات التي يثيرها هؤلاء الدخلاء على العقائد الإسلامية، غير أن السلف تخوفوا منها، وتجنبوها، وحظروا على الناس الخوض فيها، أولاً لأنهم كانوا يرون في الكتاب والسنة ما يكفيهم في حياتهم، فلا ضرورة لأن ينصرفوا إلى أبحاث دينية أخرى خارجة عنهما، وثانياً لأنهم كانوا لا يقرون الجدل في أمور الدين، إذ الدين عندهم مجرد إيمان قائم على النقل، غير أن مثل ذلك الوجوم لا يمكن أن يدوم طويلاً، فسرعان ما قام المعتزلة بالخوض في هذه الفلسفات والأفكار الدخيلة، يدرسونها ويمحصونها بدقة، فوقفوا في وجوه هؤلاء

---

(١) الأغاني ٤/١١٧.

(٢) انظر في ذلك كتاب المعتزلة لزهدي حسن جار الله ص٢٤-٢٥.

الدخلاء يهتكون أسرارهم، ويكشفون عوارهم، وانصرفوا إلى الدفاع عن العقائد الإسلامية، وحمايتها منهم بهمة عجيبة، وحماسة شديدة.

فالمعتزلة أول من تبين من المسلمين حقيقة عناصر الشر والفساد التي تغلغلت في جسم الإسلام فهبُّوا يناضلونها ويطاردونها بكل ما أوتوا من عزم وقوة، بدأ المعتزلة هذا الجهاد المقدس منذ ظهورهم، وتلك كتبهم إنما وضع أكثرها للرد على الرافضة والجهمية الجبرية، والثنوية، وسائر المجوس، والدهرية والسمنية دون غيرهم، ومناظراتهم الكثيرة المشهورة إنما كان معظمها مع المخالفين الفرس.

هذا وبعد أن انتهينا من بيان تكون فرقة المعتزلة، والأسباب التي دعت إلى تكونها وظهورها، بقي أن أذكر نبذة من تاريخ حياة هؤلاء الرجال المتقدمين الذين إليهم يعود الفضل في تكون علم الكلام في البصرة، فأبدأ بحياة الإمام الحسن البصري الذي كان دائرة معارف وعلوم شتى نبتت شجرة المعتزلة من دروسه التي كان يلقيها في مسجد البصرة، ثم أذكر ترجمة موجزة لواصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، إذ إليهما يعود تأسيس مدرسة الاعتزال، ثم أنهي خاتمة المطاف بترجمة إمام الهدى أبي الحسن الأشعري.

الإمام الحسن البصري:

هو الحسن بن أبي الحسن البصري، وكنيته أبو سعيد، واسم أبيه « يسار »، ولقد كان « يسار » من سبي « ميسان »[١].

وهو إمام أهل البصرة، وخير زمانه، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر، وسمع خطبة عثمان، وشهد يوم الدار، وكان أبوه مولى زيد بن ثابت، وأمه « خيرة » مولاة لأم سلمة زوج النبي ﷺ، وكانت أم سلمة تعطيه ثديها إذا غابت أمه في قضاء حاجة لها، تعلّله به حتى تجيء أمه، فيدر عليه، فيروي المؤرخون أن علمه وفصاحته وورعه من بركة ذلك، وكانت أم سلمة تخرجه إلى أصحاب رسول الله ﷺ فيدعون له بخير، ثم نشأ بوادي القرى، وصار

---

(١) ميسان كورة بين البصرة وواسط، افتتحت في زمن عمر بن الخطاب . انظر معجم البلدان ٥ /٢٤٢.

مولى لزيد بن ثابت، وأدرك كثيراً من الصحابة، وروى عنهم وتعلم منهم.

هذه هي البيئة التي تربى فيها الحسن ونشأ بها، لذلك أصبح جديراً بهذه الشهرة التي نالها في العلم والفضل.

علمه:

كان الحسن البصري دائرة معارف وعلوم شتى، ويظهر أنه كان للبيئة التي عاش فيها تأثير عظيم على معارفه، فقد نشأ في أحد بيوت رسول الله ﷺ، ثم كان مولى لأحد أصحابه، ثم إنه خالط أصحاب رسول الله، وأخذ عنهم، وتعلم منهم، وأدرك بعضاً من عصر عمر، وشاهد الثورة على عثمان، وقتله، ورأى خلاف علي ومعاوية، وقتالهما، وعاش إلى سنة عشر ومائة بعد الهجرة، أي أنه حضر معظم عصر بني أمية، وهو ابن سبع وثمانين سنة.

وقد نضجت علومه، وتكاملت، وتوسعت آفاق معرفته بما حصله من معارف الصحابة في المدينة التي كان يقيم بها في أول أيام حياته، ثم بما استفاده من أهل الرأي عندما انتقل إلى العراق بعد الفترة التي قضاها في المدينة، هذه الأمور جعلت منه العالم الموسوعي المتبحر، والرجل العالم الزاهد المعتدل في آرائه، وقد صارت حلقات دروسه في مسجد البصرة مقصداً لكل طالب علم، فطالب الفقه كان يحضر درسه بجانب طالب الأدب، وطالب الحديث والتفسير، وكذلك لا تخلو حلقات دروسه من أصحاب الرقائق والزهاد، وطلاب الكلام، فكان درسه هو النبع الأول الذي فاض بمبادئ العلوم الإسلامية.

يصف أبو حيان التوحيدي مجلس درسه بأنه يجمع ضروباً من الناس، وأصناف اللباس، لما يوسعهم من بيانه، هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقن منه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يتبعه في كلامه، وهذا يجرد له المقالة، وهذا يحكي له الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الموعظة، وهو في جميع هذا كالبحر

العجاج تدفقاً... يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير، وعمرو وواصل صاحبا الكلام، وابن أبي إسحاق صاحب النحو، وفرقد السنجي صاحب الرقائق، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم(١).

آراؤه في العقائد:

١ ـ الإيمان: يرى فيه أنه لا يكون إيماناً حقاً إلا إذا كان يحمل صاحبه على العمل، وإذا أخل بالعمل دل ذلك على فساد في عقيدته.

٢ ـ حكم مرتكب الكبيرة: فهو مبني على رأيه في الإيمان، وهو أن مرتكب الكبيرة، أي الذي لا يعمل بمقتضى إيمانه يكون منافقاً، لا مؤمناً خالصاً، وإلا لعمل بمقتضى إيمانه، ولا كافراً خالصاً، لأنه لو كان كذلك لأظهر الكفر علناً، فإذن مرتكب الكبيرة ليس بالمؤمن المطلق، ولا بالكافر المطلق، وإنما هو بينهما، ولا يكون إلا منافقاً.

٣ ـ مسألة القدر: فقد نقل عنه تارة ما يدل على أن المعاصي من الإنسان لا من الله تعالى وأما الخير فهو من الله، وتارة أخرى ما يدل على أن الإنسان له الاختيار المطلق في أفعاله خيرها وشرها.

ذكر القاضي عبدالجبار نقلاً عن داود بن أبي الهند أنه قال: سمعت الحسن يقول: «كل شيء بقضاء الله وقدره إلا المعاصي»(٢). وكذلك ذكر ابن المرتضى والقاضي عبدالجبار أن الحجاج كتب إلى الحسن: «بلغنا عنك في القدر شيء فاكتب إلينا بقولك» فكتب إليه الحسن رسالة طويلة منها قوله:

«فافهم أيها الأمير ما أقوله، فإن ما ينهى الله عنه فليس منه، لأنه لا يرضى عما

(١) انظر في ذلك: تاريخ الفرق الإسلامية: لعلي مصطفى الغرابي ص٤٢-٤٣، وشذرات الذهب ١/١٣٦، وطبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار ص٣٣.

(٢) طبقات المعتزلة ص٣٤.

يسخطه من العباد لأنه تعالى يقول: ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ فلو كان الكفر من قضائه وقدره لرضي عن عمله»[١] والشهرستاني يذهب إلى أن نسبة هذه الرسالة إلى الحسن غير صحيحة، ويقول: «لعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن يخالف السلف في أن القدر خيره وشره من الله تعالى، وأن هذه الكلمة كالمجمع عليها عندهم»[٢].

يذكر ابن العماد الحنبلي أن عطاء بن يسار القاضي كان قدرياً، يأتي هو ومعبد الجهني إلى الحسن ويقولان له:

يا أبا سعيد إن هؤلاء الملوك يسفكون الدماء، ويأخذون أموال المسلمين ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله تعالى، فقال الحسن: كذب أعداء الله. فتعلق عليه بمثل هذا وأشباهه[٣] ويذكر البغدادي أن للحسن البصري رسالة أرسلها إلى عمر بن عبدالعزيز في ذم القدرية[٤].

بعد كل ما تقدم فإني أميل إلى الرأي القائل بأن الحسن البصري كان يقول في بداية حياته العلمية بشيء من القدر ثم رجع عنه، وقد أنكر عليه ذلك أشد الإنكار، فلا أرى داعياً إذن إلى تكذيب بعض هذه الروايات، وتصديق بعضها، فهذه الروايات كلها نفترضها صحيحة. ولكن ندفع التناقض بينها بأن القول بالقدر قد صدر منه في بداية حياته العلمية، ثم تاب عن ذلك، ورجع إلى مذهب السلف في أن الخير والشر من الله تعالى[٥].

---

(١) المنية والأمل لابن المرتضى ص١١، وفرق وطبقات المعتزلة ص٣٤، والآية من سورة الزمر (٧).

(٢) الملل والنحل ١/٥١.

(٣) شذرات الذهب ١/١٣٨، والخطط ٤/١٨١.

(٤) الفرق بين الفرق ص٢٦٣.

(٥) انظر مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ٢/١٦٤ والمعارف لابن قتيبة ص١٩٥.

واصل بن عطاء:

أبو حذيفة واصل بن عطاء المعتزلي المعروف بالغزّال، مولى بني ضبة، وقيل بني مخزوم، ولد عام(٨٠هـ) وتوفي (١٣١هـ) [١].

نشأ بالمدينة، واختلف إلى مدرسة محمد بن الحنفية حيث كان ابناه أبو هاشم والحسن يعلمان علوم الدين، وبالمدينة اجتمع بالكثير من علمائها وعلماء مكة، مثل عبدالله بن عمر ومعبد الجهني على خلاف بينهما، وحين نضج علمه، انتقل إلى البصرة، وفيها كان تردده على مجلس الحسن البصري[٢] وفيه كان ظهوره بأهم أفكاره التي عرف بها، وهو القول في مرتكب الكبيرة بالمنزلة بين المنزلتين، ولم يكن واصل بن عطاء غزّالاً، ولكنه كان يلقب بذلك، لأنه كان يلازم الغزالين ليعرف المتعففات من النساء، فيجعل صدقته فيهن[٣].

علمه:

يكاد يجمع مؤرخو الفرق على أن واصل بن عطاء كان غزير العلم حاضر البديهة، يقضي نهاره في الجدل، وليله في تحصيل أدلة مذهبه، وكان أحد أعاجيب زمانه في الفصاحة والبلاغة قادراً على أن ينشئ كلامه على البديهة، وكان قوي الحجة مع شهرته بالصمت الطويل، حتى كان يتهم بالخرس، وكان واسع الاطلاع أحاط بمذاهب أهل عصره، وكان زاهداً في الدنيا كثير الخوف من الله، ولغزارة علمه صنف الكثير من الكتب، وإن لم يصل إلينا منها إلا بعضها.

وله من التصانيف كتاب: أصناف المرجئة، وكتاب في التوبة، وكتاب المنزلة بين المنزلتين، وكتاب معاني القرآن، وكتاب الخطب في التوحيد والعدل، وكتاب ما جرى بينه

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢ / ٢٥٥.

(٢) مفتاح السعادة ٢ /١٦٣.

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٥ / ٦٠.

وبين عمرو بن عبيد، وكتاب: السبيل إلى معرفة الحق، وكتاب: في الدعوة، وكتاب: طبقات أهل العلم والجهل.

ويذكرون أنه أحد الأئمة البلغاء المتكلمين، وأنه كان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً، فكان يخلص كلامه من الراء، ولا يُفطن لذلك، لاقتداره على الكلام، وسهولة ألفاظه، يقول فيه بعض الشعراء مادحاً له بذلك:

ويجعل البر قمحاً في تصرفه   وخالف الراء حتى احتال للشعر

ولم يطق «مطراً» والقول يعجله   فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر[١]

يذكر المؤرخون أنه هو الذي وضع الأصول الخمسة التي يرتكز عليها الاعتزال، ولكنه اشتهر بمسألة المنزلة بين المنزلتين أكثر من بقية الأصول الخمسة، الأمر الذي دفع بعض المعنيين بتاريخ المعتزلة إلى أن يقولوا: إن واصل بن عطاء واضع مسألة المنزلة بين المنزلتين فقط، وأما بقية الأصول الخمسة لمذهب المعتزلة فقد أضيفت شيئاً فشيئاً من قبل رجال الاعتزال الآخرين[٢].

ولكن الحق أن واصل بن عطاء هو واضع الأصول الخمسة في المذهب الاعتزالي، بدليل ما ذكره ابن خلكان في ثبت كتبه من كتاب «الخطب في العدل والتوحيد» وكذلك ذكر الشهرستاني له مقالته في نفي صفات الباري تعالى من العلم والقدرة والإرادة والحياة[٣].

والظاهر أن اعتناءه بمسألة المنزلة بين المنزلتين، واستدلاله الكثير عليها، كان أكثر من بقية الأصول الخمسة، التي كانت أكثر أقواله فيها محدودة غير ناضجة.

---

(١) انظر: وفيات الأعيان ٥/٦٠، وطبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار ص٤٢، والبيان والتبيين للجاحظ ١/١٢.

(٢) بحوث في المعتزلة لنلينو ص١٨١.

(٣) انظر وفيات الأعيان ١/٢٢٥، والملل والنحل ١/٥١.

فقد استدل واصل على أن مرتكب الكبيرة فاسق لا يسمى مؤمناً، ولا يسمى كافراً، بأنه لا يستحق أحكام المؤمن، ولا أحكام الكافر، وكذلك هو لا يسمى منافقاً، لأن المنافق يستحق إجراء أحكام الكفرة عليه، إذا علم نفاقه، وليس كذلك صاحب الكبيرة[١].

وهو بجانب ذلك يستدل بالإجماع، فقد أجمعت الفرق المختلفة كلها على أن مرتكب الكبيرة فاسق.

قال واصل لعمرو بن عبيد: أوليس تجد الفرق على اختلافهم يسمون صاحب الكبيرة فاسقاً، ويختلفون فيما عداه من الأسماء؟ فالخوارج تسميه كافراً فاسقاً، والمرجئة تسميه مؤمناً فاسقاً، والشيعة تسميه كافر نعمة فاسقاً، والحسن يسميه منافقاً فاسقاً، فأجمعوا على تسمية مرتكب الكبيرة بالفسق، فنأخذ بالمتفق عليه، ونترك المختلف فيه، فهو أشبه بالدين.

وهو يستدل أيضاً بالآية الكريمة: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[٢].

والمعتزلة يضيفون إلى ذلك استدلالهم بأن أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه عندما سئل عن مقاتليه من الخوارج: أكفارٌ هم؟ قال: من الكفر فروا، ثم سئل، أمسلمون هم؟ قال: لو كانوا مسلمين ما قاتلناهم. فلم يسمهم كفاراً ولا مسلمين، وإنما سماهم بغاة[٣].

هذا الاستدلال القوي من واصل بن عطاء عقلاً ونقلاً على أن مرتكب الكبيرة فاسق في منزلة بين المنزلتين يجعل لهذا الرأي شيئاً من المعقولية، لو حكم على مرتكب الكبيرة بأن حاله في الآخرة يكون بدخول النار فترة يتطهر بها من ذنوبه، ثم يدخل الجنة بإيمانه، كما ذهب إلى ذلك أهل السنة والجماعة.

ولكن الذي لا يعقل من كلام المعتزلة هو أنهم يقولون: إن مرتكبي الكبيرة من

(١) الانتصار للخياط ص١١٨.

(٢) سورة النور: الآية ٤.

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة ص٧١٣ والمنية والأمل ص٢٢.

المسلمين مخلدون في النار أبد الآبدين، فهل يعقل أن يجعلوا لعصاة المؤمنين اسماً خاصاً لا هم مؤمنون، ولا هم كفار، بل هم فساق، ثم يجعلوهم في حكم الكفار يوم القيامة، ويحكموا عليهم بالخلود بالنار؟! فهذه هي نقطة الضعف في رأيهم هذا، لذلك لا أراني أوافق الدكتور علي مصطفى الغرابي في قوله: إن المعتزلة لم يقولوا بتخليد عصاة المؤمنين في النار، بل هذا الكلام لا نجده إلا عند خصوم المعتزلة من الأشاعرة، ينسبون إليهم هذا القول، وهم منه براء[١].

لا أوافقه في هذا الرأي لأننا نجد القاضي عبدالجبار وهو معتزلي المذهب، وليس بأشعري، يقرر في كتابه: «شرح الأصول الخمسة» في أكثر من موضع تخليد مرتكب الكبيرة في النار، أبد الآبدين، وهو يذهب مع ذلك إلى أن عقابه يكون دون عقاب الكافرين[٢].

عمرو بن عبيد:

هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب، مولى بني عقيل آل عرّادة بن يربوع بن مالك.

وقد ولد مع واصل بن عطاء في عام واحد، وهو ثمانون من الهجرة، وهو في الحقيقة قرين لواصل أكثر منه تلميذاً له، بل إن المعتزلة تنسب إليه قدر نسبتها إلى واصل بن عطاء.

يقول ابن خلكان: «أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب المتكلم الزاهد المشهور مولى بني عقيل آل عرادة بن يربوع بن مالك، كان جده من سبي كابل من جبال السند»[٣].

قال الخطيب البغدادي: وعبيد أبو عمرو كان نساجاً ثم تحول شرطياً للحجاج، وهو من سبي سجستان[٤] وقد نشأ عمرو في طاعة الله، على خلاف أبيه، فإنه كان يختلف إلى أصحاب الشر، فإذا رآه الناس مع أبيه قالوا: هذا خير الناس ابن شر الناس، وقد نشأ في

---

(١) انظر: تاريخ الفرق الإسلامية ص٩٣ وما بعدها.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص٦٦٦، وما بعدها وص ٦٩٨ وما بعدها.

(٣) وفيات الأعيان ٣/١٠١.

(٤) تاريخ بغداد ٢/١٦٦.

البصرة، وكان يتردد على مدرسة الحسن البصري، وقد أجمعت المصادر المختلفة على أنه كان من أكابر العلماء ومن كبار المحدثين ثم تركوا رواياته لمذهبه، وقوله في القدر[١] .

زهده :

أما زهده وتدينه فتكاد تجمع المصادر عليهما، فينسبون إليه الزهد والورع والعبادة، وأنه كان آدم مربوعاً بين عينيه أثر السجود، وأنه صلى الفجر بوضوء العشاء أربعين عاماً، وحج أربعين سنة ماشياً، وبعيره موقوف على من أحصر، وكان يحيي ليله في ركعة واحدة، ويرجع آية واحدة، ووصفه ابن السماك بقوله : كان عمرو إذا رأيته مقبلاً توهمته جاء من دفن والديه، وإذا رأيته جالساً توهمته أجلس للقَوَد، وإذا رأيته متكلماً توهمت أن الجنة والنار لم يخلقا إلا له[٢] .

وسئل الحسن البصري عنه فقال للسائل : لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربته، إن قام بأمر قعد به، وإن قعد بأمر قام به، وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له، وإن نهى عن أمر كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه، ولا باطناً أشبه بظاهر منه[٣] .

موقفه من الحكام :

كان عمرو بن عبيد يكره الاتصال بحكام عصره والجلوس معهم، وإذا دعوه إلى التقرب منهم ابتعد عنهم، وكان يرى السلامة والسعادة في الحياة البسيطة التي لا تكلفه عناء معاشرة أصحاب السلطان، ولا يوجد لدينا ما يثبت صلة عمرو بن عبيد أو واصل بن عطاء بالأمويين ما عدا صلة عمرو بن عبيد بالخليفة العباسي أبي جعفر المنصور .

تذكر المصادر أن عمرو بن عبيد كان صديقاً لأبي جعفر قبل خلافته، ثم استمرت

(١) انظر مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ٢ / ٣٥، وميزان الاعتدال للذهبي ٢ / ٢٩٤ .

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص٢٢، وطبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار ص٤٩ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ / ١٣٠ .

هذه الصداقة بعد خلافته، ولم يستغلها لا لنفسه ولا لأصحابه.

دخل عمرو بن عبيد يوماً على أبي جعفر المنصور في خلافته، فقربه أبو جعفر وأجلسه، ثم قال له: عظني فقرأ عليه: «والفجر وليال عشر» إلى أن قال له: «إن ربك ـ يا أبا جعفر ـ لبالمرصاد»، فبكى أبو جعفر بكاءاً شديداً، وكان فيما قاله له واعظاً إياه: إن هذا الأمر الذي أصبح في يدك لو بقي في يد غيرك ممن كان قبلك لم يصل إليك، فاحذر ليلة تتمخض بيوم لا ليلة بعده.

ثم يزيد في وعظه فيبكي المنصور حتى تجف دموعه، فيقول له سليمان بن مجالد: رفقاً بأمير المؤمنين قد أتعبته منذ اليوم، فيقول له عمرو: بمثلك ضاع الأمر وانتشر، لا أبا لك، وماذا خفت على أمير المؤمنين إن بكى من خشية الله؟ ثم يقول له أبو جعفر بعد هذا: يا أبا عثمان أعني بأصحابك أستعن بهم، فيقول له عمرو: أظهر الحق يتبعك أهله، ثم لما أراد النهوض قال له أبو جعفر: قد أمرنا لك بعشرة آلاف درهم. فقال: لا حاجة لي فيها، قال: والله تأخذها، فقال: لا، والله لا آخذها، وكان المهدي بن أبي جعفر حاضراً، فقال: يحلف أمير المؤمنين، وتحلف أنت؟ فالتفت عمرو بن عبيد إلى المنصور، وقال: من هذا الفتى؟ قال: هو ولي العهد ابني المهدي، فقال عمرو: أما والله لقد ألبسته لباساً ما هو من لباس الأبرار، وسميته باسم ما استحقه، ومهدت له أمراً أمتع ما يكون أشغل ما تكون عنه! ثم التفت عمرو إلى المهدي فقال: نعم يا ابن أخي إذا حلف أبوك أحنثه عمك، لأن أباك أقوى على الكفارات من عمك، فقال له المنصور: هل من حاجة؟ قال: لا تبعث إليَّ حتى آتيك، فقال: إذن لا نلتقي، قال: هي حاجتي! ومضى، فأتبعه المنصور طرفه وهو يقول:

كلكم يمشي رويد كلكم يطلب صيد

غير عمرو بن عبيد[١]

---

(١) انظر وفيات الأعيان ٣/١٣٠، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٤/٣٢٣، وعيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري ١/٢٠٩.

أصبح عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة في وقته بعد واصل بن عطاء، ولكنه لم يأت بآراء جديدة، وكان متابعاً له في أقواله، ولم يخرج عما قرره واصل، ولا خالفه في شيء إلا في رده لبعض الأحاديث النبوية، وتحامله الزائد على بعض الصحابة، كعلي وعثمان وطلحة والزبير(١) وكان يغالي في إيمانه بالعقل، ويعقد الصلة بينه وبين الدين على أساس «أن الدين هو تقرير حجة الله في عقول المكلفين»(٢).

وقد توفي بمرّان وهو راجع إلى مكة في عام أربعة وأربعين ومائة، ورثاه المنصور بقوله:

صلى الإله عليك من متوسِّدٍ قبراً مررت به على مرّان

قبراً تضمن مؤمناً متحنفاً صدق الإله ودان بالعرفان

لو أن هذا الدهر أبقى صالحاً أبقى لنا عمراً أبا عثمان

ولم يسمع بخليفة يرثي من دونه سواه(٣).

وأصبحت المعتزلة بعد واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد فرقة لها أصولها وقواعدها، وتتابعت طبقاتها، وقد رزقهم الله في كل عصر بجماعة من فحول أهل العلم، وذوي البراعة في التمحيص، فنشروا آراء الفرقة، واستعلوا بحججهم على كل ذي حجة، واتصل منهم قوم بالخلفاء والأمراء، فاتخذوا من جاههم وسيلة لإعلاء كلمتهم، وأخذ الناس بمذهبهم.

فعن عمرو بن عبيد وأصحابه أخذ بشر بن المعتمر، وأبو الهذيل محمد بن الهذيل بن عبدالله بن مكحول المعروف بالعلاف، وعن أبي هذيل أخذ ابن أخته إبراهيم بن سيار المعروف بالنظام، وهشام بن عمرو الشيباني المعروف بالغوطي، وأبو يوسف يعقوب بن عبدالله الشحام البصري.

---

(١) الفرق بين الفرق ص١٠١، والملل والنحل ١/٥٦.

(٢) ميزان الاعتدال للذهبي ٢/٢٩٥.

(٣) وفيات الأعيان ٣/١٣٠.

وعن النظام أخذ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، والقاضي أحمد بن أبي داؤد، وعن أبي يوسف الشحام أخذ محمد بن عبدالوهاب بن سلام المعروف بالجبائي، وعن أبي علي الجبائي أخذ ابنه أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي، كما أخذ عنه شيخ أهل السنة والجماعة ـ فيما بعد ـ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري[١].

كلمة أخيرة عن جهود المعتزلة:

لا شك أن المعتزلة أدركوا قبل غيرهم الخطر الذي يتهدد به الإسلام أصحابُ الديانات والفلسفات والأفكار المختلفة، وبدأوا جهادهم المقدس منذ ظهورهم، ووضعوا كتباً عقلية رائعة، في الرد على الجهمية الجبرية، والغلاة، والثنوية، وسائر المجوس والدهرية، والسمنية والطبائعيين وغيرهم، ولا نستطيع أن ننكر دورهم الكبير في نقاش أصحاب العقائد والنحل التي لا تؤمن بالله أو بالكتاب أصلاً، وقد جابه المعتزلة كثيراً من أنواع الملحدين، والمتشككين، وأصحاب الأديان الأخرى، وكان هؤلاء لهم فلسفات خاصة، اضطر المعتزلة أن يدرسوا هذه الفلسفات لكي يقاوموهم بنفس أسلحتهم، وأن يخاطبوهم بنفس الأساليب الكلامية التي ألفوها وأتقنوها، ولم يكن عندئذ مجال لجدال هؤلاء الخصوم بالأدلة القرآنية، لأن هؤلاء الخصوم كانوا يرفضون اعتماد هذه الأدلة أساساً للنقاش.

ولكن يمكن أن يؤخذ على المعتزلة أنهم بدأوا حياتهم الأولى يدرسون العلوم الفلسفية لكي يؤيدوا بها العقائد الإيمانية، لكن لما تغلغل أثر هذه العلوم في نفوسهم، تراءى لهم أن هذه العلوم العقلية تمثل جانباً من الحقيقة، فاعتقدوا أن العقل والنقل جزءان من حقيقة واحدة، بيد أنهم لم يقفوا عند هذا الحد، وكانوا كلما ازدادوا تعمقاً في

(١) انظر وفيات الأعيان رقم ٥٧٨، وتاريخ بغداد ٣/٣٦٧، والملل والنحل ١/٦٠، والفرق بين الفرق ص١٦١.

الفلسفة، ازدادوا ابتعاداً عن الأدلة النقلية، حتى أدى بهم الأمر إلى أن يخضعوا النقل للعقل، فقالوا: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل، لأنه أساس النقل[١] وكان النظام يرى أن حجة العقل تنسخ الأخبار، ولذلك كان يرفض الأحاديث النبوية التي كان يستبشعها من جهة العقل[٢] .

وأثبت الجبائي وولده شريعة عقلية، ورد الشريعة النبوية إلى المسائل والأحكام التي لا يتطرق إليها عقل، ولا يهتدى إليها بغير السمع[٣] .

وفوق كل ذلك رأيناهم عندما آلت إليهم السلطة، واستطاعوا أن يستميلوا بعض خلفاء بني العباس إلى مبادئهم وآرائهم، وأصبحوا أصحاب نفوذ وحكم عندهم، أخذوا الناس بالقوة للتصديق بما ذهبوا إليه من مبادئ، واضطهدوا الفقهاء والمحدثين، وامتحنوا أحمد بن حنبل وغيره بمسألة خلق القرآن، الأمر الذي جعل عامة المسلمين يكرهونهم، ويمقتون آراءهم.

في هذه الأثناء قيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لهذا الدين رجلاً مأمون السر والعلانية، يعتصم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأصحابه الطيبين الطاهرين، ثم يكون له من العلم بالجدل، وأصول المناظرة، وما طرأ على أهل هذه الملة من وجوه المعرفة ما يستطيع أن يدرأ به في نحور أهل الباطل، ويرد كيدهم عليهم، فكان هذا الرجل هو أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري.

أبو الحسن الأشعري:

هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري، ولد سنة (٢٦٠هـ) وتوفي سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة للهجرة[٤].

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم ١/١٣٣.
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص٥٣.
(٣) الملل والنحل للشهرستاني ١/٨٤.
(٤) وفيات الأعيان ١/٤٦٤.

نشأ في بيت أبي علي الجبائي، فكان ربيبه وتلميذه، فقد رباه الجبائي، وعلمه الكلام حتى تخرج فيه، فاقتدى برأيه في الاعتزال، وصار من أئمة المعتزلة في وقته[١] .

ولكن الأشعري وجد من نفسه ما يبعده عن المعتزلة في تفكيرهم، مع أنه تغذى من موائدهم ونال كل ثمرات فكرهم، فمال إلى آراء الفقهاء والمحدثين، وذلك بعد أن عكف في بيته مدة يوازن فيها بين أدلة الفريقين، فتبين له بعد هذه الموازنة أن الحق مع ما يذهب إليه أهل السنة والحديث، فرقي في يوم الجمعة كرسياً بجامع البصرة، ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أنا فاعلها، وأنا تائب مقلع متصد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم[٢] .

يقول ابن عساكر: أنه أقام على مذهب المعتزلة أربعين سنة، وكان لهم إماماً، ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، فبعد ذلك خرج إلى الجامع، فصعد المنبر وقال: معاشر الناس إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت، فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق على باطل، ولا باطل على حق، فاستهديت الله تعالى، فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده، كما انخلعت من ثوبي هذا، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به، ودفع الكتب إلى الناس[٣] وكان في هذه الكتب ما بينه من مآخذ على المعتزلة وما ناصر فيه الفقهاء والمحدثين.

وقد أعلن أبو الحسن الأشعري عقيدته في هذه العبارة: «قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا عليه الصلاة والسلام، وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو

---

(١) الخطط ٤ / ١٨٦.

(٢) الوفيات ١ / ٤٦٤، والخطط ٤ / ١٨٦.

(٣) تبيين كذب المفتري ص٣٩، وطبقات الشافعية لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب السبكي ٢ / ٢٤٦.

عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مجانبون، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبدعين، وزيغ الزائغين»[١] .

سبب خروج الأشعري عن مذهب الاعتزال:

يظهر من النصوص التي تقدم ذكرها أن الأشعري كانت تتردد في صدره فكرة التحول عن الاعتزال وأنه لم يتحول عن الاعتزال إلا بعد موازنته لأدلة الفريقين، فريق أهل السنة والحديث وفريق المعتزلة، وأنه استهدى الله فهداه إلى الصواب، وألهمه الأدلة التي ترجح له طريق أهل السنة والحديث، لا سيما أن أبا الحسن الأشعري آنس من نفسه التبحر في علم الكلام، وبلغ غايته حتى إنه كان يورد بعض الأسئلة على أستاذه أبي علي الجبائي، فلا يجد عنده جواباً شافياً، فلما وجد أن أستاذه الجبائي لا يستطيع أن يقنعه أو يزيل عنه الشكوك ترك الاعتزال.

ولقد ذكر المؤرخون بعض المسائل التي تناظر فيها أبو الحسن وأستاذه، منها مسألة: أن الأصلح للعباد على الله واجب، كما تقول المعتزلة.

قال أبو الحسن الأشعري سائلاً أستاذه الجبائي: أيها الشيخ ما تقول في ثلاثة أخوة كان أحدهم مؤمناً براً تقياً والثاني كافراً فاسقاً شقياً، والثالث كان صغيراً فماتوا فكيف حالهم؟

فقال الجبائي: أما المؤمن ففي الدرجات، وأما الكافر ففي الدركات، وأما الصغير فمن أهل النجاة.

فقال أبو الحسن: فإن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات أخيه المؤمن هل يؤذن له؟ قال الجبائي: لا، لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجة بالطاعة، وليس لك

(١) الإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري ص٢.

مثلها، قال الأشعري: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني، فلو أبقيتني كنت عملت الطاعات كعمل المؤمن، قال الجبائي: يقول الله له: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت، وصرت مستحقاً للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك، قال الأشعري: فلو قال الكافر: يا إله العالمين كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني؟ فانقطع الجبائي[١].

وهناك مناظرة أخرى وقعت كذلك بين الأستاذ وتلميذه في أن أسماء الله هل هي توقيفية؟ وذلك أن رجلاً دخل على الجبائي فقال له: هل يجوز أن يسمى الله تعالى عاقلاً؟ فقال الجبائي: لا، لأن العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حقّ الله محال، فامتنع الإطلاق. قال أبو الحسن: فقلت له: فعلى قياسك لا يسمى الله سبحانه حكيماً، لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام، وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج، فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع والمنع على الله محال، لزمك أن تمنع إطلاق اسم حكيم عليه سبحانه وتعالى، فقال له الجبائي: فلم منعت أنت أن يسمى الله سبحانه وتعالى عاقلاً، وأجزت أن يسمى حكيماً، فقال له الأشعري: لأن طريقي في مأخذ أسماء الله الإذن الشرعي، دون القياس اللغوي، فأطلقت حكيماً لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلاً، لأن الشرع منعه، ولو أطلقه الشرع لأطلقته[٢]، قد تكون هاتان المناظرات وغيرهما مما كان يدور بينه وبين المعتزلة، جعلت الأشعري يراجع موقفه، ويفكر في القواعد التي بناها المعتزلة على مقتضى عقولهم، مخالفين فيها لظواهر نصوص الشرع، ومهما يكن من أمر فقد كان تحول الأشعري عن المعتزلة نقطة فاصلة في تاريخهم، وضربة محكمة أصابت شاكلتهم، ولا غرابة في ذلك لأنه كان واحداً من كبرائهم، وقد صحبهم أربعين عاماً، فوقف على دخائلهم، وأتقن طرقهم في الجدل، فعرف كيف يدحض أقوالهم، حتى قيل: «كان المعتزلة قد رفعوا

---

(١) الوفيات ١/٦٨٥، وطبقات الشافعية ٢/٢٥٠.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٢/٢٥١.

رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحبسهم في أقماع السمسم»[١].

والحق أن الأشعري اتخذ طريقاً وسطاً بين المعتزلة والحشوية، لا ابتعد عن النقل، كما فعل المعتزلة، ولا عن العقل كعادة الحشوية.

فرأيه في الصفات وسط بين المعتزلة الذين نفوا الحياة والسمع والبصر، والحشوية والمجسمة الذين شبهوا الله تعالى بالحوادث، كان المعتزلة يقولون: إن كلام الله حادث في محل، ولذلك فالقرآن حادث، وقالت الحشوية: الحروف المقطعة، والأجسام التي يكتب عليها، والألوان التي يكتب بها وما بين الدفتين قديمة[٢].

أما الأشعري فقد أبدع ـ كما يقول الشهرستاني ـ قولاً ثالثاً وسطاً بين القولين الأولين، فإنه قضى بحدوث الحروف، وحكم بأن ما نقرؤه من القرآن كلام الله على المجاز لا على سبيل الحقيقة، أما كلام الله نفسه فقديم غير مخلوق[٣].

ورأيه في القدرة، وأفعال الإنسان وسط بين الجهمية والمعتزلة، فالجهمية كانوا يعتقدون أن الله خالق أفعال العباد، والعباد لا صنع لهم في أفعالهم، ولا تقدير، والمعتزلة كانوا يرون أن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم والله تعالى لا صنع له في أفعال عباده ولا تقدير، فقال الأشعري: العبد لا يقدر على الخلق والإحداث، ولكنه يقدر على الكسب.

وقالت المشبهة: إن الله يرى يوم القيامة مكيفاً محدوداً كسائر المرئيات.

وقالت المعتزلة: إنه سبحانه وتعالى لا يرى بحال من الأحوال، فسلك الأشعري طريقاً بينهما، فقال: يرى من غير حلول ولا حدود، ولا تكييف،

وقالت المعتزلة: إن صاحب الكبيرة مع إيمانه وطاعته لا يخرج من النار قط.

وقالت المرجئة: من أخلص لله سبحانه وتعالى مرة في إيمانه، فلا تضره كبيرة مهما

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/٣٤٦، وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ص٩٤.

(٢) تبيين كذب المفتري ص١٥٠.

(٣) نهاية الإقدم في علم الكلام للشهرستاني ص٣١٣.

تكن، فسلك الأشعري طريقاً بينهما وقال: المؤمن الموحد الفاسق، هو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه بفسقه، ثم أدخله الجنة[١].

وهكذا لو تتبعنا آراء الأشعري والأشعرية كلها لما صعب علينا أن ندرك أنها وسط بين طرفي الإفراط والتفريط.

لقد سلك الأشعري في الاستدلال على العقائد مسلك النقل، ومسلك العقل، في حين كان كثير من علماء السلف يتشبثون بالنقل، ويتحاشون الخوض في الأمور العقلية، مخالفين في ذلك المعتزلة الذين ذهبوا بعيداً في تقدير العقل، والاعتماد عليه، حتى أهملوا النقل، فكانت الشقة بين الفريقين بعيدة، وكان من الضروري تقريب وجهتي النظر، وتوحيدهما، في مجرى واحد يرضي الجميع، وهذا هو ما فعله الأشعري، فإنه تمسك بالمنقول وعمل به، واستعان بالعقل على إثبات ما جاء به النقل، لأن الأشعري ـ كما يقول الغزالي ـ لا يرى معاندة بين الشرع المنقول، وبين الحق المعقول[٢].

فبذلك قد وضع الأشعري أسساً جديدة لعلم الكلام لا تتنافى مع عقائد السنة، فراقت لجميع أعلام أهل السنة، ومفكريهم واتبعوها ـ عدا بعض الحنابلة والظاهرية ـ لأنهم وجدوا فيها خير وسيلة للتخلص من النزاع الطويل بين الأثرية وبين المعتزلة.

وهكذا تكونت مدرسة كلام جديدة من أهل السنة، فلم يبق لزوم للمتكلمين المتطرفين من المعتزلة، لأن المعتزلة إنما قاموا ـ أول أمرهم ـ وقبل أن يشتطوا في تفكيرهم للدفاع عن عقيدة السنة، والرد على مخالفيها، وكانوا يدعون أنهم الطائفة الوحيدة التي يعتمد عليها في إثبات العقائد الدينية وحمايتها، بإقامة الأدلة العقلية، ورد سهام الدهرية والملاحدة عنها[٣].

(١) تبيين كذب المفتري ص١٤٩.

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص٢.

(٣) الانتصار للخياط ص١٧.

أما وقد قام من بين أهل السنة متكلمون بارعون قادرون علي أن يتكفلوا بالدفاع عن عقيدتهم، وحماية مبادئهم، فلم يعد هناك ما يبرر بقاء المعتزلة.

لذلك بدأ الاعتزال يزول من بلاد أهل السنة والجماعة، لزوال الأسباب التي دعت إلى ظهور هذا النمط من الكلام الذي سلك طريقاً وسطاً بين الإفراط والتفريط، والذي استخدم العقل في الدفاع عما جاء به النقل، هو ما بدأه الأشعري، وأكمله من بعده أتباعه الكثيرون الذين اعتنقوا مذهبه، وساروا على طريقه، وهم صفوة علماء الإسلام، وخيرة رجاله، كالقاضي أبي بكر الباقلاني المتوفى عام(٤٠٣هـ)، وأبي الحسن بن فورك المتوفى عام(٤٠٦هـ)، وأبي إسحاق الإسفرايني المتوفى عام (٤١٨هـ)، وعبدالقاهر البغدادي المتوفى عام (٤٢٩هـ) والقاضي أبي الطيب الطبري المتوفى عام (٤٥٠هـ)، وأبي بكر البيهقي المتوفى عام (٤٥٨هـ) وأبي القاسم القشيري المتوفى عام (٤٦٥ هـ)، وأبي إسحاق الشيرازي رئيس المدرسة النظامية ببغداد المتوفى عام (٤٧٦هـ)، وإمام الحرمين أبي المعالي الجويني المتوفى عام (٤٧٨هـ)، والإمام الغزالي المتوفى عام (٥٠٥هـ)، وأبي عبدالله محمد ابن تومرت المتوفى عام (٥٢٤هـ)، وهو المغربي الذي رحل إلى العراق، وتلقى فقه الأشاعرة على الإمام أبي حامد الغزالي، وعاد إلى بلاده، ونشر المذهب، فأصبح مذهباً شائعاً في بلاد المغرب، وأبي الفتح محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى عام (٥٤٨هـ)، والإمام فخر الدين الرازي المتوفى عام (٦٠٦هـ)وغيرهم، فشرحوا عقائد الأشعري، ونظموها، وزادوا عليها، ودافعوا عنها بالأدلة والبراهين العقلية، فكان لهم أكبر الفضل، وأعظم الأثر، في نجاح المذهب الأشعري، وانتشاره.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مصادر البحث

١ ـ الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن الأشعري المتوفى (٣٣٠هـ)، طبع إدارة الطباعة المنيرية.

٢ ـ إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي المتوفى (٥٠٥ هـ)، مطبعة القاهرة.

٣ ـ إشارات المرام في عبارات الإمام لكمال الدين البياضي الرومي الحنفي المشهور ببياض زاده المتوفى (١٠٩٨هـ)، طبعة الحلبي.

٤ ـ الإصابة لابن حجر العسقلاني المتوفى (٨٥٢هـ)، مصورة مؤسسة التاريخ العربي ببيروت.

٥ ـ أصول الدين لعبد القاهر البغدادي المتوفى (٤٢٩ هـ)، مطبعة استانبول.

٦ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني المتوفى (٣٥٦هـ)، القاهرة (١٩٠٥م).

٧ ـ الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي المتوفى سنة (٥٠٥هـ)، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بمصر.

٨ ـ الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد لأبي الحسين عبدالرحيم الخياط المتوفى (٣٠٠هـ)، مطبعة القاهرة.

٩ـ الباقلاني وآراؤه الكلامية للدكتور محمد رمضان عبدالله، مطبعة الأمة ببغداد (١٩٨٦م).

١٠ ـ البحر الزخار للبزار المتوفى (٢٩٢هـ)، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة (١٩٩٣م).

١١ـ بحوث في المعتزلة للمستشرق الإيطالي نلينو (نشر هذا البحث ضمن مجموعة بعنوان: التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية جمع وترجمة الدكتور عبدالرحمن بدوي).

١٢ ـ البدء والتاريخ للمقدسي نسخة من ستة أجزاء نشرة كلمان هوار، مؤسسة الخانجي بمصر، وهو من رجال القرن الرابع الهجري.

١٣ ـ البداية والنهاية في التاريخ لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل الدمشقي المعروف بابن كثير المتوفى (٧٧٤هـ)، مكتبة المعارف ببيروت.

١٤ ـ بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية لابن تيمية الحراني المتوفى (٧٢٨هـ) مطبعة القاهرة.

١٥ ـ البيان والتبيين للجاحظ المتوفى (٢٥٥هـ)، مطبعة القاهرة.

١٦- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة المتوفى (٢٧٦هـ)، تحقيق محمد زهري النجار، بيروت (١٩٧٢م).

١٧ - تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى (٣٠١هـ)، المطبعة الحسينية بالقاهرة.

١٨- تاريخ بغداد لأحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى (٤٦٤هـ)، مطبعة القاهرة.

١٩ - تاريخ الجهمية والمعتزلة للشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي، مطبعة القاهرة.

٢٠ - تاريخ الفرق الإسلامية لعلي مصطفى الغرابي، مطبعة محمد على صبيح وأولاده بالقاهرة (١٩٥٩م).

٢١ - التبصير في الدين لأبي المظفر الإسفرائيني المتوفى (٤٧١هـ) بتعليق الكوثري، مطبعة الأنوار.

٢٢ - تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي المتوفى (٥٤٧١هـ)، بتحقيق وتقديم وتعليق الكوثري، مطبعة التوفيق بدمشق.

٢٣ - التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع للإمام أبي الحسن محمد بن عبدالرحمن الملطي الشافعي المتوفى عام (٣٧٧ هـ)، مطبعة الخانجي.

٢٤ - زاد المعاد لابن القيم المتوفى (٧٥١هـ) وهو أربعة أجزاء في مجلدين، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

٢٥ - سرح العيون لأبي نباتة المتوفى (٧٦٨هـ)، طبعة القاهرة (١٩٦١م).

٢٦ - سنن الدارمي المتوفى (٢٥٥هـ)، تحقيق د. مصطفى البغا، دار القلم دمشق.

٢٧ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى (١٠٨٩هـ)، مطبعة المكتب التجاري ببيروت.

٢٨ - شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار المتوفى (٤١٥هـ)، نشر مكتبة وهبة بالقاهرة، (١٩٦٥م).

٢٩ - شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني المتوفى (٧٩٢هـ)، مطبعة القاهرة.

٣٠ - صحيح البخاري طبعة مصطفى البغا.

٣١ ـ صحيح مسلم طبعة محمد فؤاد عبدالباقي.

٣٢ ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية المتوفى (٧٥١هـ)، مكة المكرمة.

٣٣ ـ صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام لجلال الدين السيوطي المتوفى (٩١١هـ)، مطبعة السعادة بالقاهرة.

٣٤ ـ طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن تقي الدين السبكي المتوفى (٧٧١هـ)، مطبعة القاهرة.

٣٥ ـ العالم والمتعلم للإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان المتوفى (١٥٠هـ) بتحقيق القلعه جي والندوي، نشر مكتبة الحصري بحلب.

٣٦ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي المتوفى (٣٢٨ هـ)، دار إحياء التراث العربي ببيروت.

٣٧ـ عيون الأخبار لابن قتيبة المتوفى (٢٧٦هـ)، القاهرة ١٩٢٤.

٣٨ ـ فتوح البلدان لأبي العباس أحمد بن يحيى المعروف بالبلاذري المتوفى (٢٧٩هـ) دار الفكر ببيروت.

٣٩ ـ الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي المتوفى (٤٢٩هـ) نشر مكتبة محمد على صبيح وأولاده.

٤٠ ـ فرق وطبقات المعتزلة للقاضي عبدالجبار الهمداني المتوفى (٤١٥هـ) تحقيق البشار وعصام محمد علي، مطبعة الجامعة.

٤١ ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي الظاهري المتوفى (٤٥٦ هـ) مطبعة الخانجي.

٤٢ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي المتوفى (٨١٧هـ)، مؤسسة الرسالة ببيروت.

٤٣ ـ الكامل في التاريخ لأبي الحسين علي بن الأثير المتوفى (٦٠٣هـ)، مطبعة القاهرة.

٤٤ ـ مختصر تاريخ الدول لابن العبري المتوفى (٦٨٥هـ)، دار الرائد اللبناني ببيروت.

٤٥ ـ مختصر الفرق بين الفرق، اختصار عبدالرزاق بن رزق الله، طبعة دار الهلال بالقاهرة (١٩٢٤هـ).

٤٦ ـ مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها للدكتور عبدالرحمن السيد، مصر (١٩٦٨م).

٤٧ ـ مسند الإمام أحمد ـ ضمن موسوعة السنة ـ طبعة استانبول وتونس.

٤٨ ـ المصباح المنير للفيومي المتوفى (٧٧٠هـ)، دار الفكر.

٤٩ ـ المطول شرح التلخيص لسعد الدين التفتازاني المتوفى (٧٩٢هـ)، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث.

٥٠ـ المعارف لابن قتيبة المتوفى (٢٧٦هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥١ ـ المعتزلة لحسن جار الله، مطبعة مصر بالقاهرة (١٩٤٧م).

٥٢ ـ معجم البلدان لشهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي المتوفى (٦٢٦هـ)، طبعة بيروت.

٥٣ ـ المعجم الوسيط، دار الدعوة باستانبول.

٥٤ ـ معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر للشيخ نعمان بن محمد، طبعة العراق.

٥٥ ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبري زاده، وهو من علماء القرن العاشر الهجري، تحقيق الأستاذين كامل كامل بكري و عبدالوهاب أبو النور، نشر دار الكتب الحديثة.

٥٦ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري المتوفى (٣٣٠هـ) بتحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية.

٥٧ ـ الملل والنحل للإمام محمد بن عبدالكريم الشهرستاني المتوفى (٥٤٨هـ) تحقيق الدكتور محمد بن فتح الله بدران، نشر مكتبة الأنجلو المصرية.

٥٨ ـ مناقب الشافعي للرازي المتوفى (٦٠٦هـ)، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

٥٩ ـ المنية والأمل لأحمد بن يحيى بن المرتضى المعتزلي المتوفى (٤٨٠هـ)، وهو أحد كبار أئمة الزيدية في اليمن، طبعة حيدر آباد.

٦٠ ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقي الدين المقريزي المتوفى (٨٤٥ هـ)، مطبعة القاهرة.

٦١ ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال للحافظ شمس الدين الذهبي المتوفى (٧٤٨هـ) مطبعة القاهرة.

٦٢ ـ نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني المتوفى (٥٤٨هـ) أكسفورد.

٦٣ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان المتوفى (٦٨١هـ) مطبعة القاهرة.

* * *